الحِجاج

بمقالات على المنهاج

الجزء الأول

منشورات الدَّعوَة السَّلَفيَّة
كتاب رقم (١١٤) جديد

الحِجاج

بمقالات على المنهاج

الجزء الأول

تأليف:
هشام بن فهمي العارف

القدس ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥م

موقعنا على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)
Web: www. Alaqsasalafi.com

هاتف المؤلف:
(بلفون): ٠٥٤-٧٥٩-٦٧١٣
(جوال): ٠٥٩-٩٥٨-٦٧٤٩

المحتويات

١. المقدمة ٥

٢. قضيّة فلسطين في بصيرة السّلفيّين ١٧

٣. لزوم الحق وترك التعصُّب. ٣٧

٤. تفسير آيات من سورة «الأنعام» ٤٥

٥. معاني الرُّجولة عندَ السّلفيّين ٥١

٦. تفسير قوله تعالى: (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) ٦٥

٧. الخوارج قوم حسَد، وخطورة الحسد على الإيمان ٧٧

٨. حُجّة وفضيحة في آخر الطريق إلى جهنم ٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمَة

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.[2]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.[3]

أما بعد:

فان أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

(١) سورة «آل عمران» الآية (١٠٢).
(٢) سورة «النساء» الآية (١).
(٣) سورة «الأحزاب» الآيتان (٧٠ و٧١).

تناولت في هذا الكتاب عدداً من المقالات المنهجيَّة تُفسِّر رؤية السَّلفيّين للواقع الذي تعيشه بلاد المسلمين عموماً، والقدس خصوصاً، ومعلومٌ أنَّ القدسَ محل الطائفة المنصورة التي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله: «**إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة**». [1]

وعلى رأس هذه المقالات: «**قضيَّة فلسطين في بصيرة السَّلفيّين**».

وكانت بعنوان «القضيَّة الفلسطينيَّة ودورها في توحيد الأمَّة الإسلاميَّة» ألقيتها في عمان في (المركز العمّاني) تاريخ ٢١/ ٣/ ١٤٢٦ وفق ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٥ وهو المركز الذي كان يزعم القائمون عليه وعلى رأسهم دجّال العصر المدعو: (علي حسن عبد الحميد الحلبي) أنهم على منهاج الدعوة السَّلفيَّة، وسمَّوا المركز باسم شيخنا الألباني – رحمه الله – لكنهم خانوه، وخانوا الدَّعوة السَّلفيَّة، ونافقوا وخرجوا، وتبعهم من الضلاّل وأتباع الهوى والمفتونين بأموال الخوارج الكثير من الأصاغر.

وكنت ختمت هذه المقالة بوصية نافعة قالها الشيخ محمد سلطان المعصومي – رحمه الله –: «**ولا شك أن العمل بالقرآن ينبوع السعادة، وأن طاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خزينة الفلاح والنجاح، وأن طاعته واجبة في حياته وبعد مماته**». أ. هـ

قال تعالى في سورة «الأنفال»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨)**﴾.

فيا أيها المؤمنون لا تخونوا الله تعالى، ولا تخونوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ،

(١) أخرجه أحمد، والترمذي، وغيرهما، وهو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٤٠٣).

ولا تخونوا أماناتكم، ولا تخونوا المسجد الأقصى، ولا تخونوا الطائفة المنصورة في بلاد الشام، وأنتم تعلمون. وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩)**﴾ قال الشيخ المعصومي – رحمه الله –: «**فيا أيها المؤمنون! اتقوا الله، وتوبوا إليه وارجعوا عما أنتم عليه من الشركيات، والجهالات، والترَّهات، والعصبيات، ليكفِّر عنكم سيئاتكم الماضية، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم، فإن تبتم تاب الله عليكم ويوفقكم ويعطيكم السعادة والدولة في الدنيا والآخرة**».

«**فيا أيها المسلمون! اتركوا المذاهب المبتدعة، والطرق الوثنية كلياً، واكتفوا كلكم جميعاً بالتمذهب بمذهب الإمام الأعظم على الإطلاق بالاتفاق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقيدةً وعملاً، فحينئذ تتحدون وتتفقون فتفوزون وتسعدون، وتقوون، وتنصرون، وتؤيدون بالنصر الإلهي وهذا هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال**».

أما المقالة الثانية فهي بعنوان: «**لزوم الحقِّ وترك التعصُّب**».

وقد كتبتها في تاريخ ١٤٢٩/٨/١١ وفق ٢٠٠٨/٨/١٣ وقد كانت مقدِّمة لكتاب «التعصُّبُ للشيوخ، عواطف مشُوبَة بالأهواء» تأليف المدعو: (أبو عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان المصري) وهذا الآخر ادَّعى أنَّه على منهاج الدعوة السَّلفيَّة، لكنه أسرع إلى خيانتها، ونافق وخرج، واتَّبع الهوى وفُتن بأموال الخوارج فصار في عداد الأصاغر، وقد تعصَّب لشيخه المفتون (ربيع بن هادي المدخلي) وضرب بأقوال العلماء عرض الحائط، وناقض نفسه بكتابه، فخالف بتعصُّبه أقواله ومنقولاته، مع العلم أنني حاججته في القاهرة بموقفه الضّال في دفاعه عن المدعو: (ربيع) الذي نافق وخرج، وحاججته بموقف شيخه (ربيع) من الهالك: (سعد عبد الرحمن الحصين) وكان هذا الأخير أيضاً قد نافق وخرج.

وممّا نبَّهت عليه في المقالة، وأحببت أن ألفت انتباه القاريء إليه هنا في المقدِّمة هو تعصُّب المغفَّلين لشيوخهم لذا فإنّي كتبت في المقالة: «لكن يبدو لي ـ في الوقت الحاضر ـ أن صناعة التعليق بالأشخاص لدى الشيوخ والدعاة لم تقف عند المبتدعة بكافة أشكالها وأطيافها، بل امتدت إلى جهات أخرى فتلمذت تلاميذها أن يصير الواحد منهم مريداً طائعاً أعمى، ومقلِّداً مفلساً من البصيرة، ترفع رايات الدين ـ بشعارات برّاقة ـ وتسعى إلى تعليق الشباب بشخصها من أجل السير بهم إلى دروب مظلمة من الأوهام، والأباطيل، والأماني الفارغة لإشباع أهوائهم، وقد استغلّوا هؤلاء الأحداث لاندفاعهم وحماستهم فأوردوهم الرَّدى وقتلوهم بآفة التعصُّب. وبالتالي فإن هؤلاء الشباب ضحايا التعصُّب يتحوَّلون في المجتمع إلى آفات خطيرة تعصفُ به وتضرب في ثناياه ضرباً يحملهم إلى شنِّ هجوم عنيف على الحق وأهله، إذا خولف شيخهم أو انتقد، لأنهم يرون في النهاية أن الحقَّ يمزِّق وثن تعصبهم وضلالهم، ويحول بينهم وبين آمالهم للحصول على ما يخططون له من خلال نظرتهم إلى من حولهم بمنظار التعصُّب الذميم الذي ربّاهم عليه شيوخهم».

وأما المقالة الثالثة فكانت بعنوان: «**تفسير آيات من سورة الأنعام**».

وقد كتبتها حديثاً على المراسلات الفورية التي يجتمع الطلبة عليها في بعض أيام الأسبوع لطرح أسئلتهم وقراءة الإجابة عليها، وتاريخها: ١٤٣٦/٦/٢٩ وفق ٢٠١٥/٤/١٨ وكنت ختمت مقالتي بقولي: «ثم الله تعالى بعد أن بيَّن للناس الهدى والسعادة ببعثته الأنبياء والرسل وإنزاله الكتب قال: ﴿**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ**﴾ يعني من أراد يا محمد ﷺ من قومك أن يكفر بالكتاب والحكم والنبوَّة، وبهذا الهدى، وبهذه السعادة ﴿**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ وفي هذه

الجملة بشارة للطائفة المنصورة التي تقيم في القدس عاصمة بلاد الشام، لأنهم وكلاء الله في الأرض، وحزبه من عباده، (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) فدلَّ الله تعالى على أنبيائه ورسله الذين حملوا عن ربهم الهداية للبشرية جميعاً، لذا ختم الآية بأمره بالاقتداء بهم فقال: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾».

وأما المقالة الرابعة فهي بعنوان: «**معاني الرُّجولة عند السَّلفيين**».

وكنت كتبتها قبل خروج الفوج الأول من الخوارج بثلاثة أشهر أي بتاريخ ١٤٢٩/٣/١ وفق ٢٠٠٨/٣/٨، وقمت بنشرها في العدد الرابع عشر لـ «مجلة الدعوة السَّلفيَّة» التي كانت تصدر عن المركز العلمي للدراسات المنهجية والأبحاث العلمية، وهو المركز الذي لا يزال قائماً حتى تاريخ كتابة هذه الأسطر، لكنه بثوب الخوارج لأنهم خانوا الدَّعوة السَّلفيَّة ولا يزالون ينتسبون إليها زوراً وبهتاناً، فمثلهم مثل (المركز العمّاني) نافقوا وخرجوا، بل هم تبع لشيخهم دجّال العصر (علي حسن عبد الحميد الحلبي). وكتبت في مطلع المقالة هذه الكلمات: «عندما نتكلم عن السَّلفيين – وهم الباقون على منهاج النبوَّة والسَّلف – ومواقفهم الرجوليَّة، علينا أن نتذكر أنهم كما قال ﷺ: «**لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة**». وفي رواية: «**لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**». وفي رواية: «**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**». وفي رواية: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة**».

وقد حظي رجال الدَّعوة السَّلفيَّة «الطائفة المنصورة» على صفات هي بمثابة التاج على رؤوسهم منها: أنَّهم على بصيرة من الله، وأنَّهم على منهاج الأنبياء والمرسلين، وأنَّهم صدَّاعون بالتوحيد، وأنَّهم متبرؤون من الشرك والضلال، وأنهم مستمرون بالثبات على الحقِّ مهما كان الأمر، ومن شيمهم الرِّفق والشَّفقة

بقومهم والصبر عليهم، والنُّصح بإخلاص، وأنَّهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والعبادة، وأنَّهم صادقون».

وأما المقالة الخامسة فهي بعنوان: «**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**».

قمت بنشرها في العدد العاشر لـ «مجلة الدعوة السَّلفيَّة» تاريخ ١/ ٧/ ١٤٢٨ وفق ١٥/ ٧/ ٢٠٠٧، وذكرت فيها صفات العالم الربّاني: ومن هذه الصفات: أنَّه المصلح الذي يعمل بعلمه، فهو العالم الفقيه الحكيم، وأنَّ الربّاني من الأكابر، وأنَّ الربّانيّين فوق العلماء والأمراء، كما قال الشيخ العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي – رحمه الله –: «**وكانوا ملوكاً على الملوك، واقفين لهم بالمرصاد، لا يقرونهم على باطل ولا منكر، ولا يسكتون على مخالفة صريحة للدين، ولا يتساهلون معهم في حق الله، ولا يترضونهم فيما يسخط الله**».

والربّاني: بصير بالسياسة، وهم أهل الذكر لذلك وجب الرجوع إليهم بالسؤال، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾[1] وأنَّ الربّاني: قائد؛ ميدانه النفوس.

وأما المقالة السادسة فهي بعنوان: «**الخوارج قوم حسَّد، وخطورة الحسد على الإيمان**».

وهذه محاضرة ألقيتها على طلبة العلم في اللقاء السنوي الأخير تاريخ ٢٦/ ٣/ ١٤٣٦ وفق ١٦/ ١/ ٢٠١٥، وقلت فيها: «وهكذا حصل لغير إبليس

(١) سورة «النساء» الآية: (٨٣).

أمثال: بلعام الإسرائيلي، وعبد الله بن أبي بن سلول، وغيرهم، حسدوا من أعطاه الله النعمة العظمى، وهي القرآن والعمل به وبالسُّنَّة.

وهكذا اليهود: فإنَّ داءهم الدفين هو الحسد والعجب بالنفس، فجرَّهم إلى الكفر بمحمد ﷺ، وكفّار قريش كانوا على طريقة اليهود في بغضهم وحسدهم للنبي ﷺ، والمبتدعة في أمَّة محمد -عليه السلام- على طريقة اليهود في الحسد، وعلى طريقة كفّار قريش في الحسد، وعلى طريقة الكفّار في كل زمان في الحسد، وختمت المحاضرة بمعالجة داء الحسد من خلال النصيحة باتخاذ الإجراءات النافعة لردعه، وردع كيد الحاسد».

وأما المقالة السابعة والأخيرة فهي بعنوان: «**حجَّةٌ وفضيحةٌ في آخر الطريق إلى جهنَّم**».

وهي عبارة عن دروس ألقيتها على طلبة العلم في منزلي الكائن في بيت حنينا - القدس حيث ابتدأت بها في ١٧/ ٤/ ١٤٣٥ وفق ١٧/ ٢/ ٢٠١٤ واعتبرتها موضوعاً يستحقُّ أن يضمَّ إلى كتابي «المنافقون، هم العدوُّ فاحذرهم» فالمنافقون أنكروا أنهم كانوا مشركين في الدنيا، وكانوا من الحماقة والافتراء الى حدٍّ أنهم غفلوا عن أعضائهم التي كانت عوناً لهم على الشرك وسائر المعاصي أنها ستنقلب في الآخرة عليهم، وتصير إلى الشهادة ضدَّهم. فإذا عرفهم أهل الموقف وأنهم لا حجَّة لديهم فيما يزعمون صاروا إلى تمام خزيهم. قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ**

أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾

ففي هذه الآيات من سورة «فصِّلت» تذكيرٌ لمن لا يزال مستمراً في عداوته لله، ومستمراً في عداوته لأهل الحق، ومستمراً في عداوته للدعوة السَّلَفية في القدس.

لما مات أهل النفاق والشرك وخُتم على أعمالهم بالشقاوة، وقفوا على النار في الموطن الأخير على الطريق إلى جهنم ﴿**فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ أي: يساقون ويدفعون إلى النار، ولا يزالون ينكرون شركهم فلم يقبل الواحد منهم شاهداً على نفسه إلاَّ منه، وكأنهم أحسنوا الظنَّ بأعضائهم التي عاونتهم في الشرك والمعصية في دنياهم؛ أن توافقهم وتعاونهم عند السؤال في الآخرة، وأن تنكر كما أنكروا، وأن تجحد كما جحدوا، وأن تشهد لهم على كذبهم وافتراءاتهم، فانغماس المنافقين في نفاقهم لا يشعرهم بالممارسات الدنيئة التي يمارسونها في كل لحظاتهم، فمع معاينتهم الموت خضعوا وانقادوا واستسلموا ولسان حالهم يقول: ﴿**مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ**﴾! غريب، ما أشنع النفاق، وما أسوأ عقابه، نعوذ بالله منه.

فقوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قيل المراد بشهادة جلودهم: شهادة الفروج، والأرجح شهادة جلودهم ذاتها، في قول أكثر المفسرين، لأن الله تعالى قادر على إنطاق كل شيء، قال ابن كثير – رحمه الله –: «**لا يكتم منه حرف**».

فما كان منهم إلاَّ لوم أعضائهم في منظومة النفاق التي تعاونت معهم في السابق لخصام الله وأوليائه، فقالوا لهم: ﴿**لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا**﴾ شيء مضحك!، ومضحك غاية عندما تسمع أعضاء المنظمة المنافقة وهي ترد على بعضها قائلة: ﴿**أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾

ويكتمل المشهد المخزي للمنافقين وهم يصرخون في أعضائهم قائلين : «**بعداً لكُنَّ وسحقاً، فعنكنَّ كنت أناضل**» . ! !

وكتب

هشام بن فهمي بن موسى العارف

القدس خلَّصها الله من كيد الكفّار والمنافقين

السادس من شعبان عام ١٤٣٦ وفق ٢٠١٥/٥/٢٤

قضيَّة فلسطين في بصيرة السَّلفيّين

القدس -أُمُّ بلاد الشام- دار الوحدة والسلام

القدس أُمُّ بلاد الشام، لأنَّ فيها **المسجدَ الأقصى**. وفلسطين مقدِّمة بلاد الشام، وبلادُ الشام بلاد مقدَّسة مباركة بنصِّ الكتاب والسُّنة الصحيحة. **والقدسُ** هي دارُ السلام، قال ﷺ: «**إني رأيت عمود الكتاب انتُزِع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا هو نورٌ ساطعٌ عُمدَ به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتنُ بالشام**».[1]

إنَّ في **القدس** أُمِّ فلسطينَ مسجداً هو «**المسجد الأقصى**» أقامه الله تعالى لمعرفته وتوحيده وعبادته، وجعله بعد المسجد الحرام في مكة، وسمَّاه الأقصى لأنه الأبعد بالنسبة إلى الأول، وجعله مقدَّساً مباركاً، وجعل بلاد الشام بأسرها مباركةً مقدسةً من أجله، وجعل له فضائل؛ ومن أسمى هذه الفضائل أنه شاهدٌ على كل مسلم قوةً أو ضعفاً في إيمانه، وبالتالي فهو شاهد على المسلمين وحدةً أو تفرقاً في دين الله، قرباً أو بعداً في التبعية لمنهج نبيهم محمد ﷺ لذا كان **المسجد الأقصى** القبلة الأولى للمسلمين منذ عهده، وكان الابتلاء على قدسيته جهاداً لإعلاء كلمة الله الحق (**لا إله إلا الله**) قائماً ولا يزال مستمراً حتى قيام الساعة، فمن أجل هذه الكلمة فيه كانت الطائفة الظاهرة المنصورة ـ العلماء الربانيّون ـ من أمة محمد ﷺ في الشام، والتي على يديها باستمرار تنتهي في العالم مسائل الفوضى، والحيرة، والتخبط، والضلال، ويتبدد الظلام فيصير حال الناس من بركة استعمال الله لها إلى الانتظام والنظام، والبصيرة والبيان، بعد إقامة الحجة والبرهان، وينعم الناس

(١) «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٩٢).

في الأرض كلها بعدئذ بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام.

المسجد الأقصى هو القضية الفلسطينية، وهو قضية بلاد الشام بأسرها، وهو قضية كل المسلمين، وهو قضية الناس أجمعين، إن للمسجد الأقصى شأناً عظيماً، لا يصدُّ عن شأنه إلاَّ غافل أو عدو حاقد مبين.

إن ملف القضية الفلسطينية في المحكمة البشرية لا يزال عند كثير من السُذَّج مجهول الهوية.

وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذاك

لكن الملف في المحكمة الربانية للحكمة الربانية معروف الهوية. فليست القضية قضية فلسطينية فحسب بل هي قضية عالمية فتاريخها منذ القدم في الصميم أن لا معبود بحق إلا الله، وقد آن الأوان لإحلال السلام وتبديد الظلام في ربوع الشام قبل غيرها من بلاد الإسلام، بل قبل غيرها من بلاد الأنام. فإذا أراد أهل الأرض أن ينعموا بالسلام فلا بد من الرجوع إلى دين الله السلام.

المسجدُ الأقصى هو القضيَّةُ

المسجد الأقصى هو القضية لأن الصراع صراع أديان، والقضية لها أبعاد مهمة قوية، أقسم الله بشأنها في سورة «التين» فقال في مطلعها: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(١) وَطُورِ سِينِينَ(٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأمِينِ(٣)**﴾. فالله عز وجل لا يخصِّص شيئاً ولا يفضِّله ويرجحه إلا لمعنى يقتضي تخصيصه وتفضيله، نعم هو معطي ذلك المرجِّح وواهبه، فهو الذي خلقه ثم اختاره بعد خلقه. فبعض البقاع أفضل من بعض بما فضلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وبقاع المساجد عامة أفضل من غيرها، والمسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، والمقصود أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ اختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه واختصه لنفسه وارتضاه دون غيره، فإنه تعالى طيب لا يحبُّ إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة

إلا الطيب، فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى.

والله تعالى خلق الإنسان وكرَّمَه وفضَّله على مخلوقاته فقال تعالى ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾.[1]

وفي سورة «التين» أقسم الله تعالى بمهابط الوحي على الأنبياء والرسل، فالقسم بالتين والزيتون إشارةٌ إلى بلاد الشام المباركة، وفيها **المسجد الأقصى** مهبط الوحي على جملة من الأنبياء والرسل، وهو محلُّ اجتماع الأنبياء ليلة أسري بمحمد ﷺ حيث صلى فيهم إماماً، ومعلوم كم في ثمار التين والزيتون من خير ونفع وبركة، وقدَّمها الله تعالى ترتيباً على اعتبار أنها مُهاجَر إبراهيم -عليه السلام- الذي من نسله كلُّ الأنبياء، وإبراهيم ﷺ رأسٌ في الدعوة إلى الله تعالى بعد الطّوفان.

والقسم بطور سينينَ إشارة إلى جبل الطور الذي كلَّم الله-عز وجل-عليه موسى بن عمران -عليه السلام- وقد ورد في معنى (سِينِينَ): «**المبارك**».[2]

وموسى ﷺ رأسٌ في بني إسرائيل في الدعوة إلى الله، والقسم بالبلد الأمين وهي مكة فيها أول بيت وضع للناس وأول وأعظم مهبطٍ من مهابط وحي الله لخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ.

ومحمد ﷺ رأسٌ في بني إسماعيل في الدعوة إلى الله، وهو رأسٌ في البشرية كلها في الدعوة إلى الله، قال تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾.[3]

وفي هذه البقاع المذكورة مساجد أربعة لا يدخلها الدجال وهي: الكعبة، ومسجد الرسول ﷺ، **والمسجد الأقصى**، والطور. ففي حديث جنادة بن أبي

---

(١) سورة «الإسراء» الآية (٧٠).

(٢) قاله مجاهد.

(٣) سورة «الأنبياء» الآية: (١٠٧).

أمية الأزدي الدوسيِّ مرفوعاً: «**علامته: يمكث في الأرض أربعين صباحاً، يبلُغ سلطانه كلَّ منهل لا يأتي أربعة مساجد: الكعبة، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى، والطور**»... الحديث.[1]

وجاء القسم بهذه الأمكنة الفاضلة على اعتبار أنها مهابط الوحي على الأنبياء والرسل الذين بلَّغوا رسالات ربهم، هداية للإنسان الذي كرَّمه الله تعالى وفضَّله، وعهد إليه ألا يعبد الشيطان، وجواب القسم أنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ليكون أهلاً لحكمة الله في الابتلاء.

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: «**إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادْعُهُم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله**». وفي رواية: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله**». وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**».[2] «**فإن هم أطاعوا لك بذلك**». وفي رواية: «**إذا عرفوا الله**». «**فأخبرهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**»... الحديث.[3]

والرسول ﷺ إنما قاتل الناس على العقيدة (**عقيدة التوحيد**) حتى يكون الدين لله وحده، تلك العقيدة المتمثلة في شهادة أن (**لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**) على الرغم من أن سائر المفاسد والشرور كانت سائدة في ذلك الوقت، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ جعل الغاية من قتال الناس تحقيق التوحيد، وأركان الإسلام، فقد قال ﷺ كما في الصحيحين وغيرهما: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا**

---

(١) أخرجه أحمد. واللفظ له. في «المسند» (٥/٣٦٤) وفي «السنة»، وإسناده على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» وهو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٢٩٣٤).

(٢) رواه البخاري، «فتح الباري»(٢٠/٤٤٠).

(٣) «صحيح الجامع»(٢٢٩٦و٢٢٩٨).

أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَ بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ».

وهذا لا يعني أن رسول الله ﷺ لم يبال بالأمور الأخرى، من الدعوة إلى الفضائل والأخلاق الحميدة، من (البرِّ والصلة، والصدق، والوفاء، والأمانة). وترك ضدها من (الآثام، والكبائر، كالربا، والزنى، والظلم، وقطيعة الرحم). وحاشاه ﷺ ذلك، لكنه -عليه السلام- جعلها في مرتبة تلي أصول الاعتقاد، لأنه يعلم وهو القدوة ﷺ أنَّ الناس إذا استقاموا على دين الله، وأخلصوا له الطاعة والعبادة، حسنت نياتهم وأعمالهم، وفعلوا الخيرات واجتنبوا المنهيات بالجملة، وأمروا بالمعروف حتى يسود بينهم ويظهر، ونهوا عن المنكر حتى لا يظهر ولا يسود.

إذاً فمدار الخير على صلاح العقيدة، فإذا صلحت استقام الناس على الحق والخير، وإذا فسدت فسدت أحوال الناس، واستحكمت فيهم الأهواء والآثام، وسهلت عليهم المنكرات، وإلى هذا يشير الحديث الذي أخرجه الشيخان عن النبي ﷺ: « . . أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ».

فالرسول ﷺ بالإضافة إلى كونه دعا إلى إخلاص الدين لله، وقاتل الناس حتى يشهدوا بكلمة الإخلاص، فإنه ﷺ كان يدعو إلى جميع الأخلاق الفاضلة، جملةً وتفصيلاً، وينهى عن ضدها، جملةً وتفصيلاً.

لقد ابتدأ ﷺ خطابه لقريش في الجزيرة العربية، وتوِّج خطابه بالخطاب الربانيِّ بذكر النعمة التي أنعمها الله تعالى على قريش وأمرهم بناءً عليها بشكره وعبادته. قال تعالى: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ(١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(٤)﴾.

فنعم الله تعالى على قريش غير محصورة لأنهم أهل حرم الله، فإن لم يعبدوه

لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة وهي الألفة والاجتماع، والمحبة، التي حصلت بتدبير الله تعالى حيث يسافرون في الأرض آمنين مطمئنين وغيرهم من جيرانهم في خوف وفزع.

وقوله تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ**﴾ جاء في «أضواء البيان»: «**ربط بين النعمة وموجبها، كالربط بين السبب والمسبب ففيه بيان لموجب عبادة الله وحده، وحقه في ذلك على عباده جميعاً، وليس خاصاً بقريش**».

وبناء على ما تقدم فخطاب الناس بعقيدة التوحيد لإعلاء كلمة الله، يتضمن خطاب توحيد الكلمة.

ومن نتائج العلم بكلمة التوحيد؛ التعبد الحق على بصيرة، ومن فضائل البصيرة أنها توحِّد صفوف أهلها، لأن أهلها أهل لها، فكلمة التوحيد على سبيل المثال هي كلمة الإخلاص، وكلمة الإحسان، وكلمة العدل، وكلمة التقوى، وكلمة الحق، والكلمة الباقية، وكلمة الصدق، والدين الخالص، والصراط المستقيم، وكل هذه المعاني السامية أركان مهمة في وحدة المسلمين.

وكلمة التوحيد هي الكلمة التي دعا إليها الأنبياء أجمعين، وهي الكلمة التي استمع إليها الجنُّ، ﴿**فَقَالُوا**﴾ كما قال الله تعالى في سورة «الجنِّ» ـ عنهم: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢)**﴾.

وفي سورة «الأحقاف» زاد الله تعالى هذا الحدث بياناً، فقال: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ(٢٩)قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ(٣٠)**﴾

أمَّةُ بني إسرائيلَ تاريخُ العبرةِ

ابتدأت قصة بني إسرائيل بقول موسى -عليه السلام- لفرعون: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٠٥)**﴾

ولما كانت الحكمة الربانية قائمةً على العدل والرحمة، كما في قول الله تعالى في سورة «الإسراء»، وهي سورة «بني إسرائيل»: ﴿**مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥)**﴾

فاقتضت حكمة الله تعالى ورحمته التلويح بها لمن خالفها فقال في فجر الوحي كما في سورة «المزمل» تنبيهاً: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً(١٦)**﴾

لذلك لما نزلت سورة «الإسراء»، نزلت معها العبرة والاعتبار، وثبت عنه ﷺ فيما أخرجه الترمذي، وأحمد عن عائشة ـ رضي الله عنها: «**أنه كان لا ينام حتى يقرأ الزُّمَرَ وبني إسرائيل**». لأن هذه السورة فيها الكثير من النفائس، وكما وصفها ابن مسعود ـ رضي الله عنه: «**أنها من العتاق الأول**»[1]. وقال ابن حجر: «**ومراد ابن مسعود أنهن من أول ما تعلم من القرآن، وأن لهن فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم**».[2]

ومن هذه النفائس ذكر حادثة الإسراء في مطلعها، وبيان محل البركة فيها؛ بركة الدعوة إلى التوحيد، وبركة المكان، والقاسم المشترك لهذه البركة صلاته

(١) أخرجه الإمام البخاري.
(٢) «فتح الباري» (٣٨٨/٨).

ﷺ إماماً في الأنبياء والرسل في **المسجد الأقصى**، مما يعني باختصار أن الرسل والأنبياء اجتمعوا في **المسجد الأقصى** على كلمة التوحيد (**لا إله إلا الله**) وأن رسالتهم للبشرية واحدةٌ: «**أنه لا معبود بحق إلا الله**».

وفي هذا بيان واضح للناس كافة أنه لا اجتماع ولا وحدة إلا على هذه الكلمة، وأن الفرقة والشقاق عذاب، لذلك صار **المسجد الأقصى** في فلسطين من أرض الشام (بلاد السلام) شاهداً على الأنام من أهل الإسلام إلى آخر الأيام، إيماناً ووحدةً؛ أو ضلالاً وفرقةً، وهذه الشهادة لها دورها في توحيد الأمة وهي واحدة من بركات **المسجد الأقصى**، ليعلم الناس أجمعين ويرى المؤمن ولو بعد حين أن شهادة **المسجد الأقصى** مصدَّقة من رب العالمين لأنها من مكان أمين، اجتمع فيه الأنبياء والمرسلون، فالعقاب حاصل أكيد لمن تفرق عنها، وقبل بالشقاق واعتز بغير هذا الدين القويم.

وما الأحداث الجارية اليوم، إلاَّ كالتي سبقتها، وما التغيير الحاصل ولا الآتي إلى قيام الساعة إلا بسبب ما أودع الله هذه الشهادة، الحجَّةَ التي كلما أراد أهل الباطل والعناد، والزيف والإلحاد، ورؤوس الضلالة والأحزاب، طمسها أو خنقها؛ صرخت في وجوههم تفضح أعمالهم. لأنَّها بفضل من الله محميَّة.

فهي شهادة التاريخ والأحداث العظام، ومعجزات رب الأنام، فالشهادة بمعجزة حمل مريم بعيسى -عليه السلام- لا تزال ماثلة للعيان، وقريباً كانت حادثة الإسراء والمعراج إلى السماء، وغداً نزولُ عيسى عند المنارة البيضاء، وما يتبع ذلك مما أخبر به الوحي من خبر السماء؛ مما لا يؤمن به أهل البدع والأهواء.

ولما كانت أمَّة بني إسرائيل -عليه السلام- سبقت أمَّةَ محمد ﷺ فلا بد أن يقتدى فيها بالأمثال، لذلك جاء الكثير من الأخبار من خلالها من أجل الاعتبار، فلم يمنع الرسول ﷺ الحديث عن بني إسرائيل إذ كانت هذه الأخبار مما يؤيده الشرع

ويستقيم معه الفهم فقال: «**حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**».[1]

وبلغ اهتمامه ﷺ بأخبار بني إسرائيل ما حدّث به عبد الله بن عمرو: «**كان نبي الله ﷺ يحدِّث عن بني إسرائيل (وفي رواية: عامة ليله) حتى يصبح ما يقوم إلا إلى عُظم صلاة**».[2]

وجاء ذكر بني إسرائيل في سورة «الإسراء» بعد التعجيب من حادثة الإسراء قال تعالى: ﴿**وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً(٢)**﴾ قال العلامة الشيخ السعدي ـ رحمه الله: «**كثيراً ما يقرن الباري بين نبوَّة محمد ﷺ ونبوَّة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما، لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أفضل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين**».

والقرآن العظيم فيه بصائر للتعريف بالتوحيد، وبالتالي فيه بيان أسس التوحد والاجتماع، وفيه التحذير من الشرك والتحزب والافتراق، وفيه العبرة مما قصه الله تعالى من قصص بني إسرائيل، ففي سورة «الإسراء» قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ومعلوم أن أهل الذكر هم أهل القرآن لأنهم أهل الحديث والسلف، ولمَّا عرَّف أئمة الحديث الأكابر ـ رحمهم الله ـ الطائفة المنصورة قالوا: «**هم أهل العلم**».

يقصدون بذلك من كان على علم في الحديث والأثر وعلى منهاج النبوة، فإذا أضفنا بركة العلم إلى بركة المكان تحقق خير كثير ونفع كبير، وقد جاء في القرآن ما يبيِّن أن لأهل الشام ـ الطائفة المنصورة ـ فضيلة، لا يكابر فيها إلا الجاهلون، وبنو إسرائيل فضَّلهم الله تعالى في وقتهم على العالمين، قال تعالى في سورة «يونس»: ﴿**وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ**﴾

---

(١) «صحيح الجامع»(٣١٣١).

(٢) أخرجه أبو داود، وهو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٠٢٥).

إلى أن دخلت فيهم المبتدعات والضلالات فبيَّن الله تعالى صدق حجَّة الطائفة المنصورة فيهم بقوله: ﴿**فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٩٣)**﴾ وقال تعالى في سورة «الجاثية»: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ وإسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ أسكنهم الله تعالى بلاد الشام، وجعل قبلتهم **المسجد الأقصى**. قال تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾.

قال الحسن البصري وقتادة: «**والأرض هي: أرض الشام**».[1] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**وإنما أورث الله بني إسرائيل أرض الشام**».[2]

واستمر نسلهم فيها إلى أن جاء عيسى بن مريم -عليه السلام- وقد أعلم الله تعالى بني إسرائيل وأخبرهم بالعصيان والفساد، فقال في سورة «الإسراء» وهي سورة «بني إسرائيل»: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ واللام في قوله تعالى: ﴿**لَتُفْسِدُنَّ**﴾، و﴿**لَتَعْلُنَّ**﴾ لام التوكيد، بمعنى توكيد أنكم لتعصنَّ وأنكم لتستكبرنَّ، وهي تشبه قوله ﷺ لأمته معلماً إياهم ومخبراً على وجه التوكيد: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قيل يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال فمن**».[3]

فلما فسد بنو إسرائيل في المرَّة الأولى سلَّط الله عليهم بختنصر، إذاً لم يأت

---

(١) أخرجه الطبري.

(٢) «مجموع الفتاوى»(٤٤/٢٧).

(٣) متفق عليه.

بختنصر ليحتل، ولم يأت لينتصر، بل أتى مسخراً من الله تعالى ومسلَّطاً ليعذِّب. لذا قال تعالى في السورة: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً**﴾

قال ابن كثير ـ رحمه الله: «**أي: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد أي: قوة وعدة وعدد وسلطنة شديدة، ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي: بينها، ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين، لا يخافون أحداً وكان وعداً مفعولاً**».

وهكذا فعل تَيْطَسُ لما فسد بنو إسرائيل في المرَّة الثانية، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾

وبناء على ما تقدم فقد جمع الله تعالى في سورة «الإسراء»، بين مسألتين مهمتين: الأولى: شرف الحادثة العظيمة وهي حادثة الإسراء بالنبي محمد ﷺ وما فيها من قصص، وعبر، وابتلاء، فهي مفخرة في حق أمته التي ورثت عقيدة الأنبياء، ليكون همُّها مواصلة الخير، والفضيلة، والعمل الصالح، لذا تناولت طلائع أمته ﷺ الحادثة بالصدق والإيمان.

والثانية: بيان ما تناولته نهايات أمة بني إسرائيل من الفساد الذي منعها من مواصلة مهمتها في الأفضلية والخيرية، إذ لم يقدِّروا النعمة التي أنعمها الله تعالى عليهم، ولم يشكروه عليها، فانتزعها منهم لتكون في أمة محمد ﷺ الذي هو من نسل إسماعيل ولد إبراهيم ـ عليهما السلام ـ.

ولا شك أن القاسم المشترك بين الأمتين: أمة بني إسرائيل ﷺ وأمة محمد ﷺ هو الذي نبَّه الله تعالى عليه بقوله في السورة: ﴿**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**﴾ وقوله في السورة: ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا**﴾ ومن هذا الباب كان تنبيه النبي محمد ﷺ لأمته بقوله:

«إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة» .[1]

ومن آثار الفساد ونتائجه وصوره التي أصبحت شاهدة للعيان: حصار المسجد الأقصى الآن. والحصار من أعلام نبوته ﷺ كما هو ثابت في صحيح الخبر. عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل أمسجد رسول الله ﷺ أم بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى هو، وليوشكن لأن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً. أو قال: خير له من الدنيا وما فيها» .[2]

حادثة الإسراء، وأُسُسٌ مهمَّة في توحيد الأمة

قال تعالى في مطلع سورة «الإسراء»: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١)﴾.

يستنبط من هذه الآية أسس مهمة في توحيد الأمة منها:

أولاً: الاعتقاد الصحيح بتوحيد الأسماء والصفات.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾، معناه التنزيه والتبرئة والتبعيد، وسبحت الله: أي نزهته وبرأته مما لا يليق بجلاله، وأصل المعنى والاشتقاق: كما قال الخطّابي: «باعدته مما لا يليق به».

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٤٠٣).

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه»، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والإمام الألباني. والحديث أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

قال الإمام أحمد: «**لايوصف الله إلا بما وصف نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والسنة**».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] فهذا رد على الممثِّلة. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2] رد على المعطِّلة.**

وقولهم في الصفات مبني على أصلين: أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص مطلقاً كالسنة، والنوم، والعجز، والجهل، وغير ذلك.

والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات».

وتأتي ﴿سُبْحَانَ﴾ بمعنى التعجب أو بمعنى التعجيب من أمر عظيم. والأمر العظيم هنا هو حادثة الإسراء بالنبي ﷺ فلقد ذهب الجمهور من علماء المحدِّثين، والفقهاء، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، -ولا ينبغي العدول عن ذلك- إلى أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد المبعث.

وفيما تقدَّم رد على المبتدعة من أمثال الأشاعرة ومن وافقهم الذين خرجوا عن فهم أهل الحديث والسَّلف في توحيد الأسماء والصفات، وبيان أن توحيد الأسماء والصفات أساس مهم في توحيد الأمة المسلمة، وما التفرق الحاصل أغلبه في الأمة إلا من هذا الباب، ويتبعه بناء عليه أبواب وأبواب، وقد نبَّه النبي ﷺ إلى خطورة الضلال عن معرفة الله -عز وجل- فقال: «**إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار**

---

(١) سورة «الشورى» الآية:(١١).

(٢) سورة «الشورى» الآية:(١١).

إلا واحدة وهي الجماعة» .[1] وفي رواية : «**ما أنا عليه وأصحابي**» .[2]

ثانياً : تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى من غير الغلوِّ بنبيِّه ﷺ .

فقوله تعالى ﴿بِعَبْدِهِ﴾ : وهذه هي إضافة التشريف والتنويه بالذكر ، واستخدامه في طاعته وتنفيذ أمره ، فقد ثبت من قوله ﷺ : «**يا أيها الناس! لا ترفعوني فوق قدري ، فإن الله اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً**» .[3]

وفي هذا بيان لدفع من توهم رفع منزلته ﷺ عن كونه عبداً لله ، فمن عظَّمه التعظيم غير اللائق به فقد أعظم على الله الفرية ، قال العلماء فيما نقله القرطبي في «الجامع» : «**لو كان للنبي ﷺ أشرف منه لسمَّاه به في تلك الحالة العلية**» . وقال القشيري : «**لمَّا رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية ، وأرقاه فوق الكواكب العلوية ، ألزمه اسم العبودية تواضعاً للأمة**» .

ثالثاً : التعمُّق في فهم الرابط المفضي إلى الوحدة بين المسجدين : المسجد الحرام والمسجد الأقصى .

ففي الحديث الصحيح قوله ﷺ : «**فَرَبَطْتُهُ ـ يعني البراق ـ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ**» .[4]

وإن كان ربط الدواب كما قال البيهقي ـ رحمه الله ـ عادة معهودة ، إلا أن لعملية ربط البراق بالحلقة التي يربط به الأنبياء في **المسجد الأقصى** مغزى ، وفوائد ، ومعاني ، يجب أن لا نغفل عنها ؛ ومنها :

---

(١) «صحيح سنن ابن ماجه»(٣٩٩٣).
(٢) «صحيح الجامع»(٥٣٤٣).
(٣) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٥٥٠).
(٤) «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٣٩٥٦).

أن الطريق الذي سلكته الأنبياء هو طريق واحد، وأنهم لما مرّوا -عليهم السلام- من خلال **المسجد الأقصى** الواحد تلو الآخر، أكدوا على منهجهم الواحد في عبوديتهم لله تعالى، وفي ذلك إشارة مهمة إلى أهمية المكان وفضيلته، إذ هو أهل للبركة والمرابطة. وهو مكان المعجزة حين ينادي الحجر والشجر على من أخلص عبوديته لله ليخلص الناس من شر من غضب الله عليهم، لما تقدم في علم الله السابق أنه محل الحجَّة في صراع فريقين من الناس:

فريق أحب الانتساب إلى الله أو الانتساب لمحمد ﷺ ادِّعاءً لا حقيقةً، فصرف عبوديته لغير الله، أو عظَّم أحداً من الأنبياء تعظيماً لا يليق به، أو انتهج منهجاً غير منهج النبوة.

وفريق أحب الانتساب لله عبودية خالصة له كما بيَّن الله وأمر، فانتهج منهج الأنبياء الذين تقدمهم محمد ﷺ.

وكلا الفريقين المتصارعين على شتى طوائفهم لمَّا تعرّضا لفتنة المسيح الدجال في آخر الزمان وهي فتنة كبيرة حذَّر منها النبي ﷺ، صار الفصل إلى المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام-.

فمن كان في صف المسيح عيسى سلم، ومن كان في صف الدجال؛ الله -عز وجل- منه ينتقم.

وبلاد الشام عموماً وهي الأرض المقدسة بلاد مباركة، لأنها أرض الجهاد في سبيل الله، وفيها **المسجد الأقصى** منبر الأنبياء، والجهاد فيها مستمر إلى قيام الساعة، رأس سنامه إقامة الحجَّة على المنتسب إلى الله ورسله زوراً وبهتاناً، وقد نقل أبو داود في «مسائله» عن أحمد أنه قيل له: هذه الأحاديث التي جاءت: (**إن الله تكفل لي بالشام وأهله**) ونحو هذا؟ قال: «**ما أكثر ما جاء في هذا! قيل له: فلعله في الثغور؟ قال: لا، وقال: أرض بيت المقدس أين هي؟ ولا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق هم أهل الشام**».

من مكة (المسجد الحرام) إلى القدس (المسجد الأقصى)

وفي الإسراء ـ الحادثة المعجزة ـ تأكيد على روابط التوحيد والوحدة، وهي:

الرابط العقدي التعبدي الواصل بين المسجدين على الترتيب.

والرابط التفضيلي الواصل بين الأمن والبركة.

والرابط الجامع للأنبياء في وحدة الرسالة.

والرابط الواصل بين إبراهيم ومحمد ـ عليهما السلام ـ وما بينهما من التشابه.

والرابط الواصل بين نسل إبراهيم -عليه السلام- الأتقياء.

والرابط في التوحيد والعبادة بين المسلمين من ذرية إسماعيل وإسرائيل.

والرابط الواصل بين الأرض والسماء بحادثة المعراج التي تلت حادثة الإسراء.

والرابط الواصل بين المسلم في عقيدته **والمسجد الأقصى**.

والرابط الواصل بين منهاج الطائفة المنصورة ومنهاج النبوة.

والرابط الواصل بين دعوة التوحيد في بلاد الشام والجزيرة العربية عبر التاريخ.

والرابط الواصل بين حاضرة الخلافة على منهاج النبوَّة في الجزيرة العربية أول الأمر، وفي بلاد الشام آخر الأمر.

والرابط الواصل بين الفتوحات عبر تاريخ **المسجد الأقصى** ابتداءً بفتح يوشع بن نون، وانتهاء بفتح عيسى ابن مريم -عليه السلام- بعد نزوله على المنارة البيضاء بدمشق.

وكل هذه الروابط أركان في توحيد الأمة.

المسجد الأقصى عبْرَ الفتح والخلافة
إلى مفتتح أشراط الساعة

شهد **المسجد الأقصى** عبر تاريخه المروي في الكتاب، والسنة الصحيحة، معجزات فريدة وعجيبة، وكلها من آثار بركته التي أودعها الله فيه، ويزداد الشعور والتنعم بهذه البركة مع بركة الدعوة إلى الله على بصيرة.

ومن هذه الحوادث العجيبات المعجزات التي يستنبط منها آثار عظيمة البركات:

قصة هجرة إبراهيم إلى أرض الشام.

وقصة يوسف وما كان فيها من أنواع الابتلاء.

وقصة عجوز بني إسرائيل وكيف أنه لما استُخرجت عظام يوسف -عليه السلام- صارت الطريق إلى الأرض المقدسة مثل ضوء النهار.

وقصة عقاب بني إسرائيل لما امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة.

وقصة فتح يوشع بن نون -عليه السلام- **للقدس**، إذ لم تحبس الشمس لأحد إلا له ليالِيَ سار إلى **بيت المقدس**.

وقصة انتصار طالوت على جالوت، وما فيها من انتصار القلة على الكثرة، وظهور داود الملك النبي القوي -عليه السلام-.

ومن ورائه ابنه سليمان -عليه السلام- الذي: «**لما بنى المسجد الأقصى سَأَلَ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- خِلالاً ثَلاثَةً: منها: مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ**»[1].

وقصة مريم الصدِّيقة وما كانت تجده في محرابها من الرزق. وقصة حملها بعيسى -عليه السلام-، وما تبع ذلك مما تفضل الله عليها بسبب الحمل.

وقصة زكريا -عليه السلام- وحرصه ألا يضيّع قرابته وعصبتُه الدين من بعده، وما بشَّره الله من الولد.

---

(١) «صحيح الجامع»(٢٠٩٠).

فكان يحيي –عليه السلام– الذي قال الله له: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[1] قال ابن القيم ـ رحمه الله: «**أي بجد واجتهاد وعزم، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور**».[2]

فأخذه يحيى –عليه السلام– ولم يميِّع كالمميِّعين، ولم يبتدع كالمبتدعة، بل أخذه بحقه كما أمر الله تعالى. وكان من فعله ما أخبر عنه النبي ﷺ: «**أنه جَمَعَ النَّاسَ (بني إسرائيل) فِي بيت المقدس فَامْتَلأَ الْمَسْجِدُ، وَتَعَدَّوْا عَلَى الشُّرَفِ.. فأمرهم بالتوحيد، والصلاة، والزكاة، وأمرهم بذكر الله**». وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلاَّ أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ**».[3]

إن عناصر وحدة المسلمين جمعها يحيى –عليه السلام– تنبيهاً لبني إسرائيل.

يحيى الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وأضاف إليها النبي ﷺ حكمة بالغة؛ الناس اليوم في أمس الحاجة إليها، وملخصها مجتمعة: العلم بكلمة التوحيد، والقيام بأركان الإسلام، والسمع والطاعة، والجهاد في سبيل الله، والهجرة في سبيل الله، والجماعة، مع انتهاج منهاج النبوَّة والسَّلف في كل جزئية مما تقدم، ويعني تطبيق ما تقدَّم وفق الضوابط والأحكام الشرعية المرعية كما قام على رعايتها بالتمام والكمال الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ.

---

(١) سورة «مريم» الآية: (١٢).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٤٧٠).

(٣) «صحيح الترمذي»(٢٨٦٣).

ومن الحوادث العجيبات المعجزات: قصة رفع عيسى ـ عليه السلام ـ، وحادثة الإسراء والمعراج، وبشارة النبي ﷺ بفتح **بيت المقدس**. وما قاله عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عند الفتح: «**إنّا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزَّ بغيره**».[1]

فصارت عبارته ـ رضي الله عنه ـ منهاجاً لمن أحب فتح **القدس**. فإذا أردنا العزة فعلينا بالتوحيد، والوحدة، والجهاد الحقَّ في سبيل الله تعالى. قال الله تعالى في سورة «الأنفال»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٣)**﴾.

وقال في السورة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤)**﴾.

قال الشيخ محمد سلطان المعصومي ـ رحمه الله: «**ولا شك أن العمل بالقرآن ينبوع السعادة، وأن طاعة الرسول ﷺ خزينة الفلاح والنجاح وأن طاعته واجبة في حياته وبعد مماته**».[2]

وقال تعالى في السورة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨)**﴾

فيا أيها المؤمنون لا تخونوا الله تعالى، ولا تخونوا الرسول ﷺ، ولا تخونوا أماناتكم، ولا تخونوا المسجد الأقصى، ولا تخونوا الطائفة المنصورة في بلاد

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٥١).

(٢) «تمييز المحظوظين عن المحرومين»(ص:١٩٢).

الشام، وأنتم تعلمون.

وقال تعالى في السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩)﴾

قال الشيخ المعصومي ـ رحمه الله: «فيا أيها المؤمنونَ ! اتقوا الله، وتوبوا إليه وارجعوا عما أنتم عليه من الشركيات، والجهالات، والتُّرَّهات، والعصبيات، ليكفِّر عنكم سيئاتكم الماضية، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم، فإن تبتم تاب الله عليكم ويوفقكم ويعطيكم السعادة والدولة في الدنيا والآخرة». [١]

وقال ـ رحمه الله: «فيا أيها المسلمون! اتركوا المذاهب المبتدعة، والطرق الوثنية كلياً، واكتفوا كلكم جميعاً بالتمذهب بمذهب الإمام الأعظم على الإطلاق بالاتفاق محمد ﷺ عقيدة وعملاً، فحينئذ تتحدون وتتفقون فتفوزون وتسعدون، وتقوون، وتنصرون، وتؤيدون بالنصر الإلهي وهذا هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال». [٢]

(١) «تمييز المحظوظين عن المحرومين»(ص:٢٠٣).

(٢) «تمييز المحظوظين عن المحرومين»(ص:٢٠٥).

لزومُ الحقِّ وذَمُّ التَعَصُّب

نقول أننا على منهاج النبوة والسلف، لأنه منهاج ربَّاني، موفَّق أتباعه للسعادة، ومنهاج النبوة والسلف منهاج الحجَّة والبيان، منهاج الفطرة السويَّة. وفيه كل أسباب الأمان، فمن كان على منهاج النبوَّة والسلف كان على الحق، وكان على الجادَّة في عبادة ربه، ومن ترك منهاج النبوة والسلف بعد العلم والبينة كان على باطل في اعتقاده، وضلال في عبادة ربه. لذا فإنَّ معرفة الحق تحتاج إلى إخلاص لله، وعلم على بصيرة، وصبر وثبات.

قال الإمام الأوزاعي ـ رحمه الله: «**اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم**».

والحق نقيض الباطل، وأصل الحق: المطابقة والموافقة، والله تعالى حث على التمسك بالحق والتواصي به في سورة «العصر» فقال: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ**﴾.

وكان الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ يوصي بعضهم بعضًا بالصبر على الحق وطاعة الله. لذلك «**كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر ﴿وَالْعَصْرِ(١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)﴾، . . . . ثم يسلِّم أحدهما على الآخر**».[1]

قال ابن تيمية –رحمه الله–: «ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به، ويتنعم به، ويغتذي به، وهو اليقين».[2]

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٢٦٤٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢١/٢٨).

ويحتاج الثبات على الحق إلى الصبر، فإذا صبر الآمر بالحقِّ صار إلى كمال الربح، لذا كان التواصي بالصبر عقب التواصي بالحقِّ في سورة «العصر». وليعلم السامع أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبداً، صرّح بذلك النبي ﷺ في أكثر من حديث صحيح.

إن التمسك بالحقِّ في الناس أمر عزيز، كذلك الصبر من أجل الثبات على الحقِّ أيضاً عزيز. وإن التكذيب بالحقِّ خسران في الدنيا والآخرة، ويورث في الدنيا الفوضى، والاضطراب، واختلاط الأمور، لأنه منافٍ للفطرة، فالناس فطروا على محبة الحقِّ وإرادته، قال ابن تيمية ـ رحمه الله: «**والقلب خلق يحب الحقَّ ويريده ويطلبه**». [1]

والوقوع بجريمة تكذيب الحقِّ الذي مصدره التعصب المقيت تحريف للفطرة السليمة، وبالتالي الدخول بالعبثية المرفوضة، لأن الكذب على الحقِّ، أو التكذيب بالحقِّ من الآفات المحطمة للمجتمع، والمهيجة للضلال، والمثوِّرة للباطل، قال تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ**﴾. [2]

يعني: لمّا تركوا الحقِّ وعدلوا عنه؛ تعصباً لاعتقاداتهم الضالة، مرج عليهم أمرهم والتبس، وهذا عقاب من تفلَّت من اتباع الحقِّ، أو صدَّ عنه، فأصحاب هذا المسلك المشين لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، قال ابن القيم -رحمه الله-: «**بل لا يقولون شيئاً إلا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود**». [3]

والتعصُّب للعقائد، أو التعصُّب للمذاهب، أو التعصُّب للأحزاب، أو التعصُّب

(١) «مجموع الفتاوى» (٨٨/١٠).
(٢) سورة «ق» الآية: (٥).
(٣) «التبيان في أقسام القرآن»(٧٥/١).

للأشخاص نقيض الحق، لأن سبيل الذي على الحق خلاف سبيل المتعصِّب، ذلك لأن الذي على الحق متبع على بصيرة، وسبيل المتعصِّب اتباع الهوى، فالمتعصب مقلِّد أعمى لا يحسب للنتائج حساباً ولا يرصد لأفعاله ما سيقع فيه من الويلات والنقم، وشتان بين الذي في النور والذي في الظلام.

والمتعصِّب حين يواجه الدعوة الصحيحة ويصرُّ على ضلاله في التعصُّب يتحمَّل إثم فعله في الدنيا، وسيلقى جرّاء فعله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة؛ لتعصُّبه واستكباره عن الحقِّ. وأول هذا العقاب هو رؤيته الحق باطلاً، والباطل حقاً كما قال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾.[1]

إن موضوع التعصُّب ذو أهمية؛ وترجع أهمّيته إلى الوقت الذي صار تقليد حدثاء الأسنان للأصاغر سنَّة في زمن الفتن، فإلى الله المشتكى مما عمَّت به البلوى في بلادنا، فقد طار الشباب إلى هذا التعصُّب المقيت. ـ إلا من رحم ربي ـ بسبب ضعفهم العلمي أو بسبب ضعف صدق اتباعهم للحق، وقد يكون من الأسباب المهمة في تعصُّب المغفَّلين لشيوخهم هو خطَّة المشيخة السيئة في تعليق من أراد الانتساب إلى شرع الله بشخوصهم دون تعليقهم بالحقِّ، وهذه آفة خطيرة وهي فعل أهل البدع والضلالات وديدن الصوفية الطرقية الضالة، والخوارج التي حوّلت تلاميذها إلى مريدين ضائعين لاهثين وراء مشايخهم بالتقليد الأعمى والتعصُّب المقيت.

وقد حذَّر العلماء من العصبيات على شتى ألوانها وأشكالها في كل وقت

(١) سورة «الأعراف» الآية: (١٤٦).

وزمن، وحذَّروا من شناعة التعصُّب للشيوخ لأنه خلاف الحق ونقيضه، ولم تكن تربية النبي ﷺ لأصحابه ـ رضوان الله عنهم ـ إلا تربية سوّية تلائم الفطرة، وتحبب في الحق، وتعتني بالنفس أن تبقى زكية نظيفة من أدران التعلق بالأشخاص، أو التعصب لأي كان.

لكن يبدو لي ـ في الوقت الحاضر ـ أن صناعة التعليق بالأشخاص لدى الشيوخ والدعاة لم تقف عند المبتدعة بكافة أشكالها وأطيافها بل امتد إلى جهات أخرى فتلمذت تلاميذها أن يصير الواحد منهم مريداً طائعاً أعمى، ومقلِّداً مفلساً من البصيرة، ترفع رايات الدين ـ بشعارات برّاقة ـ وتسعى إلى تعليق الشباب بشخصها من أجل السير بهم إلى دروب مظلمة من الأوهام والأباطيل والأماني الفارغة لإشباع أهوائهم، وقد استغلوا هؤلاء الأحداث لاندفاعهم وحماستهم فأوردوهم الردى وقتلوهم بآفة التعصُّب. وبالتالي فإن هؤلاء الشباب ضحايا التعصُّب يتحوَّلون في المجتمع إلى آفات خطيرة تعصف به وتضرب في ثناياه ضرباً يحملهم إلى شن هجوم عنيف على الحق وأهله، إذا خولف شيخهم أو انتقد، لأنهم يرون في النهاية أن الحقَّ يمزِّق وثن تعصبهم وضلالهم ويحول بينهم وبين آمالهم للحصول على ما يخططون له من خلال نظرتهم إلى من حولهم بمنظار التعصب الذميم الذي ربّاهم عليه شيخهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «**وَلَيْسَ لِلْمُعَلِّمِينَ أَنْ يحزبوا النَّاسَ وَيَفْعَلُوا مَا يُلْقِي بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، بَلْ يَكُونُونَ مِثْلَ الْإِخْوَةِ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**. [١]

وَلَيْسَ لِأَحَدِ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أَحَدٍ عَهْدًا بِمُوَافَقَتِهِ عَلَى كُلِّ مَا يُرِيدُهُ؛ وَمُوَالَاةِ

(١) سورة «المائدة» الآية: (٢).

مَنْ يُوَالِيه؛ وَمُعَادَاة مَنْ يُعَادِيه، بَلْ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَانَ مَنْ جِنْسِ جنكيز خان وَأَمْثَاله الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَنْ وَافَقَهُمْ صَدِيقًا مُوَالِيًا وَمَنْ خَالَفَهُمْ عَدُوًّا بَاغِيًا؛ بَلْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَتْبَاعِهِمْ عَهْدُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِأَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ وَيَفْعَلُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ وَيُحَرِّمُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ وَيَرْعَوْا حُقُوقَ الْمُعَلِّمِينَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. فَإِنْ كَانَ أُسْتَاذُ أَحَدٍ مَظْلُومًا نَصَرَهُ وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا لَمْ يُعَاوِنْهُ عَلَى الظُّلْمِ بَلْ يَمْنَعُهُ مِنْهُ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «انْصُرْ أَخَاك ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ فَذَلِكَ نَصْرُك إيَّاهُ». [1]

وقال -رحمه الله-:

«وَإِذَا وَقَعَ بَيْنَ مُعَلِّمٍ وَمُعَلِّمٍ أَوْ تِلْمِيذٍ وَتِلْمِيذٍ أَوْ مُعَلِّمٍ وَتِلْمِيذٍ خُصُومَةٌ وَمُشَاجَرَةٌ لَمْ يَجُزْ لِأَحَدِ أَنْ يُعِينَ أَحَدَهُمَا حَتَّى يَعْلَمَ الْحَقَّ فَلَا يُعَاوِنُهُ بِجَهْلِ وَلَا بِهَوَى بَلْ يَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ أَعَانَ الْمُحِقَّ مِنْهُمَا عَلَى الْمُبْطِلِ سَوَاءٌ كَانَ الْمُحِقُّ مِنْ أَصْحَابِهِ أَوْ أَصْحَابِ غَيْرِهِ؛ وَسَوَاءٌ كَانَ الْمُبْطِلُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَوْ أَصْحَابِ غَيْرِهِ فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ؛ وَاتِّبَاعَ الْحَقِّ وَالْقِيَامَ بِالْقِسْطِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. [2]

يُقَالُ: لَوَى يَلْوِي لِسَانَهُ: فَيُخْبِرُ بِالْكَذِبِ. وَالْإِعْرَاضُ: أَنْ يَكْتُمَ الْحَقَّ؛ فَإِنَّ

---

(١) «صحيح الجامع» (١٥٠٢).

(٢) سورة «النساء» الآية: (١٣٥).

السَّاكِتَ عَنْ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ. وَمَنْ مَالَ مَعَ صَاحِبِهِ - سَوَاءٌ كَانَ الْحَقُّ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ - فَقَدْ حَكَمَ بِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ وَخَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْوَاجِبُ عَلَى جَمِيعِهِمْ أَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً مَعَ الْمُحِقِّ عَلَى الْمُبْطِلِ فَيَكُونَ الْمُعَظَّمُ عِنْدَهُمْ مَنْ عَظَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْمُقَدَّمُ عِنْدَهُمْ مَنْ قَدَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْمَحْبُوبُ عِنْدَهُمْ مَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْمُهَانُ عِنْدَهُمْ مَنْ أَهَانَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِحَسَبِ مَا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا بِحَسَبِ الْأَهْوَاءِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ؛ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَهُ. فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي عَلَيْهِمْ اعْتِمَادُهُ. وَحِينَئِذٍ فَلَا حَاجَةَ إلَى تَفَرُّقِهِمْ وَتَشَيُّعِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. (١) **وقال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾** (٢) **انتهى كلام ابن تيمية. رحمه الله..** (٣)

ولا شك أن المتعصِّب يوم القيامة سيلقى الندم بسبب جرم التعصُّب قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا (٢٩)﴾** (٤)

ولا شك أن التفرق الذي تقع فيه الأمَّة، وحذّر منه المصطفى ﷺ ظلمٌ سببه التعصُّب، وافترق التعصُّب بعيداً عن الحق إلى فرقٍ شتى، فوقع البغض في الأمَّة ووقعت الفرقة فاستحقت مقت الله، فالعصبيات الدينية المخالفة للكتاب والسنة ممقوتة، والعصبيات القومية والبلدية على شتى أشكالها وألوانها ممقوتة،

(١) سورة «الأنعام» الآية: (١٥٩).
(٢) سورة «آل عمران» الآية: (١٠٥).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/١٥-١٧).
(٤) سورة «الفرقان».

والعصبيات المذهبية ممقوتة، والعصبيات القبلية ممقوتة، والعصبيات العشائرية ممقوتة، لأنها كلها دعوات جاهلية منتنة أنكرها النبي ﷺ ولن تكتب النجاة إلا لمن لزم الحقِّ وابتعد عن هوى التعصُّب.

ولا بد أن يكون لنا من الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ العبرة في التبرؤ من العصبيَّة، فقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر لما بلغه خبر الذين نفوا القدر قال: «**فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر**».

والنبي ﷺ أمر بقتل الخوارج لتعصُّبهم لضلالهم، وانتقاصهم الصحابة، ويحملهم شدة تعصُّبهم إلى تأويل النصوص تأويلاتٍ فاسدةً بعيدةً كل البعد عن الهدى، بل يستبيحون بتأويلاتهم الضالة تكفير المسلمين ويستحلّون دماءهم بالقتل والتفجير.

وحمل العلماء على أهل البدع والخرافات، وحملوا على علم الكلام، وحملوا على من تعصب للفلاسفة، ولا شك أن المبتدعة على شتى أطيافهم لشدة تعصُّبهم لا يفلحون بالتوبة ـ إلا من رحم ربي ـ مصداقاً لقول النبي ﷺ: «**إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة**».[1] وفي رواية ـ صحيحة: «**إن الله حجب التوبة عن صاحب كل بدعة**».[2]

فصاحب البدعة منازع لله في الحكم، فحريٌّ به أن لا يوفَّق للتوبة، لأنه متعصِّب لما هو خلاف السنة والحق، فليس من السهل عليه أن يتوبَ من بدعته، لأن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله، يكون متعصِّباً قد زيُّن له سوء عمله فرآه

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٢٠).
(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٤).

حسناً، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[1]

واعلم أن المفاسد التي أنتجها بلاء التعصُّب وترك لزوم الحق عديدة منها: مخالفة النصوص الثابتة من الكتاب والسنة. وكثرة الأحاديث الضعيفة والموضوعة والاحتجاج بها. وتقديم أقوال العلماء المتأخرين على أقوال الأئمة المتقدمين. والانحباس في مذهب واحد. وخلو كثير من الكتب المذهبية من الأدلة الشرعية. وشيوع التقليد والجمود. والتشدد في كثير من المسائل. والتعلق بالكتب الفكرية القومية والسياسية. والانتصار للأصاغر وترك الأكابر. والحماسة والاندفاع والمسارعة للفتوى قبل التضلُّع بالعلم الشرعي. والكذب والمخادعة والابتداع. والخصومات من غير حجَّة علمية.

هذا وإن أسوأ ما خلّفه بلاء التعصُّب بشكل عام محاربة شرع الله تعالى، ومحاربة منهاج النبوَّة والسلف، ومحاربة أهل السُّنَّة والحق، وهناك فرقٌ في أمة محمد ﷺ لتعصُّبهم لأقوال أئمتهم المخالفة لشرع الله هدّدوا أهل السُّنَّة ومحبيها بسبب اتباعهم الحق بالقتل، أو تتبعوهم حتى أخرجوهم من ديارهم، وما سبب ذلك إلا تولُّد الدَّخن الذي افتعله داء التعصُّب.

(١) سورة «فاطر» الآية: (٨).

تَفسيرُ آياتٍ مِنْ سُورَةِ «الأنعامِ»

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الذين آمنوا: المؤمنون الخُلَّص، ومعنى الخُلَّص أن إيمانهم كامل، كما قال -عليه السلام-: «أكمل المؤمنين إيماناً» يعني جمعوا - باطناً وظاهراً - بين مسائل الإيمان في القلب، ومسائل العبادات في الجوارح، ليس عندهم شركيات ولا معاصٍ، لأن الله تعالى وصفهم بقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم

يخلطوا إيمانهم بشرك، وهذا تفسير النبي -عليه السلام- حين سأله الصحابة: وأيُّنا لا يظلم نفسه؟! قال: أقرؤا قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ إذاً الظلم ظلمان: ظلم معصية، وظلم شرك، لكن هنا في نص الآية ﴿**وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ ظلم الشرك الذي هو أعظم الكبائر ويليه ظلم المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ هو: ظلم الشرك وظلم المعاصي، فما هي جائزة من لم يخلط إيمانه بظلم الشرك وظلم المعصية؟ قال: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ جائزتان: واحدة أكبر من الثانية: الأمن والهداية، يمكن أن يشعر الإنسان بالأمن لكن ليس عنده هداية، وعند الابتلاء يذوب الأمن ويبقى الضلال، لذلك دوام الشعور بالأمن والطمأنينة لا يكون إلا بسبب الهداية الصحيحة، والمنهج السليم، والبصيرة الحقَّة.

وقوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا**﴾ لأن المؤمنين الخُلَّص الذين لهم الأمن وهم مهتدون حجتهم قوية لأنهم على بصيرة، خذوا مثالاً على ذلك إبراهيم -عليه السلام- ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**﴾ حجَّة قاصمة رفعناه بها لقوَّتها، وهذه مشيئة الله تعالى في إبراهيم وقومه، فقوله: ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾ بيَّن الله تعالى مشيئته في حجَّة إبراهيم ورفعه، وبيَّن أن حجته أصابت، لماذا؟ الجواب في خاتمة الآية: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ**﴾ الذي يرعاك بالتأكيد، ويأخذ بيدك، وينصرك ويسدِّدك، من صفاته أنه سبحانه ﴿**حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ وقرن صفة الحكمة بالعلم، لأن تدبيره سبحانه قائم على حكمة، وقائم على علم، ومشيئته سبحانه مبنية على حكمة وعلم، وقدَّم الحكمة على العلم، إذ العلم من غير حكمة لا ينفع، ومن هذه الحكمة التي يتصف بها الله تعالى، والمشيئة التي سبحانه يشاؤها، أنه بعد الحجَّة التي سخَّرها لإبراهيم على قومه ورفعه بها درجات، وهبه نبيين هما من سارة: اسحق ويعقوب فقال: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ إنها

الجائزة على حجته ودعوته لله وصبره وثباته على الحق وهو في النار التي أرادوا حرقه فيها، كما قال ابن كثير – رحمه الله –: «أبدله الله أرضاً خيراً من أرضه، ونسلاً خيراً من قومه»، الله أكبر ما أعظم عطاء الله، عطاء لا ينضب، عطاء عزيز، تدبَّر كلمة ﴿وَوَهَبْنَا﴾ هبة من الله، لأن سارة حملت بإسحاق ومن ثم بيعقوب، وهي عجوز عقيم، ولم تقف حدود العطاء عند وهبه الولد، بل كما قال: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ الهداية نعمة عظيمة، إنهما نبيان عليمان مهديان، واعلم أن هذا الشبل من ذاك الأسد، إبراهيم من نسل نوح، وإسحاق ويعقوب من نسل إبراهيم، وقدم اسحاق ويعقوب بالذكر على نوح –عليهم السلام– لأن الآيات تتحدث عن إبراهيم، فناسب أن يذكر ولديه، ثم عطف عليهما بأول الرسل وهو نوح –عليه السلام–، ونوح رأس ما قبل الطّوفان، لذلك عطف وقال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وابراهيم رأس، لكنه بعد الطّوفان، فاكتملت الحلقة، ما قبل الطّوفان نوح، وما بعد الطّوفان إبراهيم، ثم عطف الله عليهما، بذرية إبراهيم فقال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ ترتيب يبدو أنه عشوائي، لكن له حكمة، ابتدأ بداود –عليه السلام–، وداود جدَّد التوراة في القدس، وكان ملكاً، أقام دولة لبني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب –عليه السلام– ومحل إقامة إبراهيم وإسحاق ويعقوب أصلاً في الشام في مدينة القدس، فناسب ذكر داود أولاً ثم ابنه سليمان – عليهما السلام – وكلاهما أقاما كيان الحق في بلاد الشام، بعد أن تركها يعقوب الى مصر ليقيم عند ولده يوسف – عليهما السلام –، ثم عاد نسل يعقوب بعد أن فتحت القدس.

ولد داود، ومن ثم قتل جالوت، وخلفه سليمان، وبنى سليمان **المسجد الأقصى**، وعاد لربوع القدس المنهج السلفي الحق. ﴿وَأَيُّوبَ﴾ عطفه على داود وسليمان، وهو من نسل يعقوب في القدس، ويعني – أيضاً – من نسل

إبراهيم - عليهم السلام - ﴿**وَيُوسُفَ**﴾ هو ابن يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل، ابن ابراهيم، فداود وسليمان أقاما دولة الحق، وبدأ بهما لأنهما كانا في الملوكية الحقة وقد سخَّر الله تعالى لهما الحديد والجن والرياح والجبال، أما أيوب فقد كان كاملاً في الصبر، وهنا سؤال نقارن فيه بين حالتين: صبر الغني الشاكر، أو صبر الفقير الصابر، وسنأتي لبيانه إن شاء الله في «تفسير نصوص الوحيين في الصبر»، لكنهم جميعاً نجحوا في الابتلاء، ثم عطف بيوسف - عليه السلام - فقال: ﴿**وَيُوسُفَ**﴾ من باب الجمع بين الابتلاءين، ابتلاء الملك وابتلاء الصبر في السجن، أما موسى وهارون - عليهما السلام - وإن كانا سبقا داود وسليمان وأيوب ويوسف في الترتيب الزمني، فقد أخر في الآية ذكرهما فقال: ﴿**وَمُوسَى وَهَارُونَ**﴾ لماذا؟ لأن الله تعالى أراد أن يبيِّن مهاجر إبراهيم -عليه السلام- بذكر داود وسليمان أولاً، وأخَّر ذكرهما تعظيماً لموسى على من تقدم، فموسى -عليه السلام- من أولي العزم، وليس منزلة داود وسليمان وأيوب ويوسف مثله بل هو أفضل منهم، ومعلوم أن موسى نزلت عليه التوراة، وداود عنده التجديد فقط، ويعقوب رأس لبني إسرائيل من حيث التسمية، أما موسى فهو رأس لبني إسرائيل من حيث الدين، فقد نزلت عليه التوراة، والتوراة عمدة كتب بني إسرائيل، والله تعالى كلَّمه، وقرن الله تعالى بموسى أخاه هارون - عليهما السلام - وختم الآية بقوله: ﴿**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ والمحسن أعلى من المؤمن، وهذه مرتبة شرف لهؤلاء جميعاً -عليهم السلام-، ثم قال الله تعالى: ﴿**وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ هنا الترتيب حسب الزمن، وليس كالترتيب الذي قبله. فالأول لأسبابه: القوة الملكية، والقوة العملية وهي في الصبر، والقوة العلمية وفيها البراهين والمعجزات.

وزكريا -عليه السلام- شهد انهيار بني إسرائيل العقدي، وهو يوشك على

الذوبان فنادى ربه، وارتبطت المناداة برأس التسمية لبني إسرائيل وهو يعقوب، قال تعالى: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾ فولد له يحيى -عليه السلام-، ويحيى حمل العلم الشرعي منذ نعومة أظفاره، ثم ولَدَت مريم عيسى -عليه السلام-، ويحيى وعيسى ابنا خالة حملا رسالة الله تعالى إلى بني إسرائيل، وبنحوٍ من زمانهما كان الياس -عليه السلام-.

إنها حقبة مهمة من التاريخ عاصرها هؤلاء معاً، تركوا الدنيا والتفتوا إلى دعوة الله، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿**كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ لأنهم امتازوا بالعمل الصالح؛ وأعلاه الدعوة إلى توحيد الله تعالى، كانوا على منهج النبوَّة والسَّلَف، كانوا على منهج الله.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا**﴾ وإسماعيل بن إبراهيم من هاجر ومن نسله محمد - عليهم السلام - والله تعالى ألحق: اليسع ويونس ولوطاً بمن تقدَّم ذكرهم ليبيَّن أن لهم فضلاً، وإلا فهناك الكثير من الأنبياء لهم فضلٌ، لكن الله تعالى لم يذكرهم، لذا ختم الآية بقوله: ﴿**وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾.

وقول الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ أراد الله تعالى ذكر هذه السلالة الطيبة التي كانت من مشيئته وحكمته، وأنَّه سبحانه اختارهم دون الناس وهداهم الى صراط مستقيم، سلسلة لحمية نبوية، ليشير إليهم على أنهم قدوة في الهدى والحق -عليهم السلام- وأن الهدى منه سبحانه، ومشيئته في الهداية لمن شاء من عباده، لذا قال: ﴿**ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ فلا اعتراض على حكمه، ولا اعتراض على مشيئته، ولا يجوز لأحد الحسد والاستكبار، بل رضى ونعمة وقبول وغبطة.

ثم بيَّن الله تعالى أن هؤلاء الذين اختارهم لرسالته واصطفاهم لدعوته لا يجوز لهم بتاتاً الشرك به، فقال: ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أي: لو أنهم أشركوا لأفسدوا عملهم الصالح بسبب الشرك، فلن يتقبله، فالله تعالى أراد أن يعظِّم من جرم الشرك، فلا رحمة لأحد إن أشرك بالله تعالى، ولا يمكن أن تشفع له أعماله الصالحة التي قدَّمها إن هو أشرك.

ثم قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**﴾ عوداً على بدء فقوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ فجمع للأنبياء والرسل أموراً مهمة: الكتاب والحكمة والنبوة، فلا يجوز لأحد أن يخلط إيمانه بظلم فيدَّعي أنه فوقهم مهما كان، ولا يجوز لأحد أن يعتقد أن أحداً أفضل منهم، ولا يجوز لأحد مهما أوتي من الحكمة أن يقول: أنه يساويهم. فمن آمن بالله وآمن بهؤلاء فقد آمن واهتدى.

ثم الله تعالى بعد أن بيَّن للناس الهدى والسعادة ببعثته الأنبياء والرسل وإنزاله الكتب قال: ﴿**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ**﴾ يعني من أراد يا محمد ﷺ من قومك أن يكفر بالكتاب والحكم والنبوَّة، وبهذا الهدى، وبهذه السعادة ﴿**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ وفي هذه الجملة بشارة للطائفة المنصورة التي تقيم في القدس عاصمة بلاد الشام، لأنهم وكلاء الله في الأرض، وحزبه من عباده، ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**﴾ فدلَّ الله تعالى على أنبيائه ورسله الذين حملوا عن ربهم الهداية للبشرية جميعاً، لذا ختم الآية بأمره بالاقتداء بهم فقال: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**﴾.

ولمّا كان الله تعالى يريد من أنبيائه ورسله أن يبلِّغوا رسالة ربهم ويبيِّنوا للناس رشادهم ونجاتهم وخلاصهم قال: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ أي: ما فعلت هذا إلاَّ نصيحة لكم، خالصة لله، لا أبتغي منها أجراً، ولا أسألكم عليها مقابلاً ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**﴾ هذا هو كتاب الله، وهو ذكرى وتذكرة لكم، وذكرى وتذكرة للعالمين لينتفع منه الجميع في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

مَعاني الرُّجولَةِ عِنْدَ السَّلفيّين

عندما نتكلم عن السَّلفيين - وهم الباقون على منهاج النبوة والسَّلف - ومواقفهم الرجوليَّة، علينا أن نتذكر أنهم كما قال ﷺ: «**لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة**». (١) وفي رواية: «**لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**». (٢) وفي رواية: «**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**». (٣) وفي رواية: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة**». (٤)

والخذل ضد النصرة، وخذله خذلاً وخذلاناً: ترك نصرته وكان يظن به أن ينصره. لذلك، قيل: «**خذلت الظبية وغيرها: إذا تخلَّفت عن صواحبها، أو تخلَّفت فلم تلتحق، وتخاذلت رجلاه: ضعفتا**». (٥)

وعليه فإن السلفي دوماً ـ بفضل من الله ـ مواقفه شجاعة، ورجوليَّة في مواجهة أعداء الله أجمعين، لذلك لا بد أن نتذكر شيئاً من هذه المواقف حتى نكون على قدر المسؤولية اتجاه الدَّعوة إلى الله على بصيرة، مستفيدين من مواقف أهل الحق ممن نصروا الأنبياء، ومن مواقف الصحابة أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤٠٣).
(٢) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٩٥٧).
(٣) «صحيح الجامع» (٧٢٩٠).
(٤) «صحيح الجامع» (٧٢٩٢).
(٥) «غريب الحديث» للحربي، و«بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي.

الدعوة السَّلَفية: رجالها على بصيرة من الله

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾[1]

الرجل: مختص بالذَّكر من الناس، والأولى به هنا أنه بيِّنُ الرَجولية والجلادة.

جاء هذا الرجل من أقصى المدينة يسعى بكل همةٍ ونشاطٍ وعلى بصيرة، حرصاً على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل فآمن به، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، والرُّجولة بعد البصيرة أن تكون سيِّد المواقف في تبليغ الحق، لا تخشى في الله لومة لائم، لأنك تدعو ودعوتك حق لأنها دعوة الأنبياء والمرسلين.

الدعوة السَّلفيَّة: رجالها على منهاج الأنبياء والمرسلين

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله: «**فأمرهم ـ أي الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ـ باتباعهم، ونَصَحَهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة. ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: اتبعوا من نصحكم نصحاً يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم، ولا أجراً على نصحه لكم، وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.**

بقي أن يقال: فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة، ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾».

ومن كان على منهاج النبوَّة والسلف – بفضل من الله تعالى – يدعو لما يشهد الشرع بحسنه، ولا ينهى عنها إلا بما شهد الشرع بقبحه، لأن الذي يدعو إليه منصوص عليه في الكتاب والسنة الصحيحة، لذا فهو – ولله الحمد – يأمر بالمعروف بفقه؛ وينهى عن المنكر بفقه.

---

(١) سورة «يس» الآية (٢٠).

الدعوة السَّلفيَّة: رجالها صدَّاعون بالتوحيد

فكأن هذا الرجل الآتي من أقصى المدينة آمراً قومه باتباع المرسلين لم يقبلوا نصحه، بل عادوا لائمين له على اتباع الرسل، وإخلاص الدين للّه وحده، فردَّ عليهم قائلاً: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة، لأنه الذي فطرني، وخلقني، ورزقني، وإليه مآل جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم، فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد، في الدنيا والآخرة، هو الذي يستحق أن يُعبد، ويثنى عليه ويمجد، دون من لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا عطاءً ولا منعاً، ولا حياةً ولا موتاً ولا نشوراً، ولهذا قال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، فلا تغني شفاعتهم عني شيئا، وَلا هُمْ يُنْقذون من الضر الذي أراده اللّه بي.

الدعوة السَّلفيَّة: رجالها متبرؤون من الشرك والضلال

وقال: ﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي: إن عبدت آلهة هذا وصفها، ﴿لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ فجمع في هذا الكلام بين نصحهم والشهادة للرسل بالرسالة، والاهتداء والإخبار بتعيُّن عبادة اللّه وحده، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، وذَكَر البراهين عليها، والإخبار بضلال من عبدها، والإعلان بإيمانه جهراً، مع خوفه الشديد من قتلهم.

وهذه حقيقة ما يلاقيه عادة من سار سيره في اتباع الرسل، فالسلفيون ـ ولله الحمد ـ صدّاعون بالحق، داعون إلى التوحيد، متبرؤون من الشرك والضلال والخزعبلات، ولا شك أنهم يلاقون ما لاقى هذا الرجل الشجاع الصدّاع بالحق من الأذى والشتيمة والمؤامرات الجبانة.

الدعوة السَّلفيَّة: رجالها مستمرُّون بالثباتِ على الحقِّ مهما كان الأمر

وقال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ فقتله قومه، تنفيذاً لأوامر جبنهم وانصياعهم إلى الهوى والذلَّة، لمّا سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به. فـ﴿قِيلَ﴾ له في الحال: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فهذا جزاؤه وثوابه على شجاعته ودعوته الناس إلى عبادة الله وحده.

الدعوة السَّلفيَّة: من شيم رجالها الرِّفق والشَّفقةِ بقومهم والصبر عليهم

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله: «**فقال مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحاً لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بأي: شيء غفر لي، فأزال عني أنواع العقوبات ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بأنواع المثوبات والمسرَّات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم**».

الدعوة السَّلفيَّة: من شِيَمِ رجالها النُّصحُ بإخلاص

النصح نقيض الغش، والنصيحة: كلمة جامعة معناها: حيازة الخير للمنصوح له، وقيل إنها مأخوذة من «نصحت العسل» إذا صفيته من الشمع، شبه تخليص القول من الغش، بتخليص العسل من الخلط. لذلك جاء قوله ﷺ: «**الدين النصيحة**».[1] فهي عماد الدين وقوامه، كقوله: «**الحج عرفة**».[2]

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «**فهذا يدل على أن النصيحة تشمل**

(١) «صحيح الجامع» (٣٤١٧).
(٢) «صحيح الجامع» (٣١٧٢).

خصال الإسلام والإيمان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل -عليه السلام- وسمى ذلك كله ديناً».

والنصيحة في زمن الفتن والهرج معدن كاد يكون نادراً لضعف الإيمان والجهل في الدين، بل لعل الناصح يكون في مواقف كثيرة هو المذنب لأنه نصح!

صحيح أن النصيحة تحتاج للفقه في الدين، فلا يكون الناصح ناصحاً إلا إذا كان فقيهاً في دين الله تعالى. ومنزلة الناصح رفيعة عند ربه ولا أدلَّ على ذلك من فعل الأنبياء والرسل فهم الرأس في النصح والنصيحة. فاسمع ـ على سبيل المثال ـ ما قاله نوح لقومه: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾.

وأخرج البخاري، ومسلم، وأحمد، وغيرهم، عن جرير، قال: «**بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فلقنني فيما استطعت، والنصح لكل مسلم**». وجاء في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**حق المسلم على المسلم ست**». فذكر منها: «**وإذا استنصحك فانصح له**».[1]

وقال الغزي في «آداب العشرة»: «**ومنها ـ أي من الآداب ـ أن يراعي في صحبة إخوانه صلاحهم لا مرادهم، ودلالته على رشدهم لا على ما يحبونه**».

وقال ابن حبان ـ رحمه الله: «**خير الإخوان أشدهم مبالغة في النصيحة، كما أن خير الأعمال أحمدها عاقبة، وأحسنها إخلاصاً، وضرب الناصح خير من تحية الناشيء.. إلى أن قال.. وليس الناصح بأولى من المنصوح**».

وكثيراً ما تحتاج النصيحة إلى مواقف رجوليَّة شجاعة منها ما ذكره الله تعالى في سورة «غافر»: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ**

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٢١٥٤).

كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾

فمن الأسباب التي اتخذها موسى ﷺ في صدِّ حيلة فرعون الذي نوى قتله وتصفيته، الاستعاذة بربه من شرور فرعون، فصار موسى -عليه السلام- ممتنعاً بربوبية رب العالمين، المدبِّر لجميع الأمور. على حيل فرعون وخططه، فسخر الله تعالى لموسى -عليه السلام- رجلاً مؤمناً ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾ رجل فرعوني. وكان جارياً مجرى ولي العهد ومجرى صاحب الشرطة. آمن بدين موسى -عليه السلام- وكتمه، فسجَّل موقفاً رجوليَّاً جمع فيه الحجج القوية التالية: قال: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**﴾ وهو استفهام على سبيل الإنكار. أي هو عظيم في الرجال حسّاً ومعنىً، أتقتلونه لأجل ﴿**أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**﴾.

ولجوء أهل الباطل الفجرة إلى مؤامرات شتى من أنواع الأذى بما فيها القتل، إنما يكون حين تنقطع الحجة عندهم فإنهم يعودون على أهل الحق وهم «**الرجال**» بالأذى والاعتداء، لشدة غيظهم وحماقتهم.

وقد كان علماء التفسير يستشهدون بما رواه الإمام البخاري وغيره، في تفسير هذه الآية لاستشهاد أبي بكر. رضي الله عنه. بها عندما أوذي النبي محمد ﷺ. **فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النبي ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ فَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبّيَ الله وَقَدْ جَاءكُمْ بالبينات مِن رَّبّكُمْ﴾.**

كان لأبي بكر. رضي الله عنه. موقف رجوليٌّ شجاع في الدفاع عن النبي ﷺ ففي «تفسير النسائي» (٤٨٢) عن عمرو بن العاص، أنه سئل: **ما أشد شيء رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مرَّ بهم ذات يوم، فقالوا له: أنت الذي**

تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ قال: «أنا» فقاموا إليه، فأخذوه بمجامع ثيابه. قال: فرأيت أبا بكر محتضنه من وراءه يصرخ، وإن عيناه تنضحان. تتساقط منها الدموع. وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ الله، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: جاءكم بما يدل على صدقه، وهذا لا يوجب قتله. لأنه كان يدعو إلى توحيد الله.

﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ يعني: فعليه وبال كذبه، فلا ينبغي أن تقتلوه بغير حجة، ولا برهان. **﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾** قال أهل المعاني: **هذا على المظاهرة في الحجاج، كأنه قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وفي بعض ذلك هلاككم، فذكر البعض ليوجب الكل. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)﴾** قال قتادة: «**مشرك أسرف على نفسه بالشرك**». وعادته الكذب. **﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا . . .(٢٩)﴾** ذكَّرهم بما هم فيه من الملك ليشكروا بالإيمان بالله، والمعنى لكم الملك فلا تتعرضوا لعذاب الله بالتكذيب وقتل النبي ﷺ.

الدعوة السَّلفيَّة: رجالها لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والعبادة

ومن المواقف الرجوليَّة ما ذكره الله تعالى في سورة «النور»: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾**

ذكْرُ الرجال بعد ذكر البيوت استئناف لبيان حال من حصلت لهم الهداية لذلك النور، وذكْر بعض أعمالهم القلبية والقالبية. وخص الرجال بالذكر في

هذه المساجد لأنه ليس على النساء جمعة، ولا جماعة في المسجد. والأرجح أن ذكرهم إشعار بما لهم من عزائم ماضية، وهمم عالية، في الدفاع عن دين الله، وإلا فالنساء شقائق الرجال في كل خير وفضل لقوله تعالى في سورة «الأحزاب»: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)**﴾

تماماً كما في ذكرهم إشعارٌ على طهارتهم وتطهُّرهم بالماء في قوله تعالى في سورة «التوبة»: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)**﴾

وتماماً كما في ذكرهم إشعارٌ لصدقهم كما سيأتي، كل ذلك على اعتبار همَّتهم وعزيمتهم في الدفاع عن دين الله تعالى وصدِّ ضلالات المكذبين وأهل الباطل، فهم رجال متطهرون لعبادة الله دوماً. قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله: «**بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه**». لذا قال: ﴿**لا تُلْهِيهِمْ**﴾ لا تشغلهم ﴿**تِجَارَةٌ**﴾ قيل: خصَّ التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات، وأراد بالتجارة: الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعًا لأنه ذكر البيع بعد هذا، كقوله في سورة «الجمعة»: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً**﴾ يعني: الشراء

وقال الفراء: «**التجارة لأهل الجلب**». ﴿**وَلا بَيْعٌ**﴾ والبيع ما باعه الرجل على يديه ﴿**عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ على أقوال: قال قتادة: «**القيام بحق الله**». وقال ابن عطية: «**بأنهم لمراقبتهم أمر الله تعالى وطلبهم لرضاه لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا**». ومنهم من قال: **لا يشغلهم تجارة ولا غيرها عن حضور المساجد للصلاة**.

﴿**وإقام**﴾ أي: لإقامة، ﴿**الصلاة**﴾ حذف الهاء وأراد أداءها في وقتها، لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة، وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لأنه أراد بإقام الصلاة حفظ المواقيت.

﴿**وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ**﴾ المفروضة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «**إذا حضر وقت**

أداء الزكاة لم يحبسوها». وقيل: «**هي الأعمال الصالحة**». وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله: «**ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك ذكر ما يدعوها إلى ذلك ترغيباً وترهيباً فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ من شدة هوله وإزعاجه**».

إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها، وهو أن تضطرب من الهول والفزع وتشخص، كقوله في سورة «الأحزاب»: ﴿**وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر**﴾، وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياً لا تبصر.

الدعوة السَّلفيَّة: رجالها صادقون

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب، لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «**بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**».

فوصفهم النبي ﷺ بالرجوليَّة والإيمان والصدق. وقد أمر الله تعالى بالصدق في كتابه العزيز، وحث عليه، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[1]

وجعل الله تعالى الصدق علامة على المؤمن، فالمؤمن صادق في اعتقاده، صادق في تبعيته لنبيه ﷺ صادق في محبته للسلف الصالح الذين على رأسهم

(١) سورة «التوبة» الآية: (١١٩).

الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ، صادق في جهاده في الدفاع عن الحق، صادق في أقواله وأفعاله، صادق في نصيحته لإخوانه وأهله ومجتمعه، صادق في دعوته لربه، وقد امتدح الله تعالى جملة صدق المؤمن بقوله: ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[1].

والصدق في الاعتقادات، والأقوال، والأفعال، شيمة المؤمنين المتحابّين في الله، المتناصحين فيه، وهو درجة رفيعة لأن الكذب درجة وضيعة خسيسة، فلا يعقل أن يكون المؤمن كذّاباً، فالكذب صفة المنافق والكافر، لذا قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ . .**﴾[2]

فالصدق مرتبة عالية لا يتحلى بها إلا مؤمن. وعن عبد الرحمن بن الحارث بن أبي قراد السلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند النبي ﷺ فدعا بطهور فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فحسوناه فقال النبي ﷺ: «**ما حملكم على ما فعلتم**؟ قلنا: حب الله ورسوله، قال: «**فإن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله، فأدوا إذا ائتمنتم، واصدقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جوار من جاوركم**». [3]

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة**». [4]

والصدق من التصديق، وينبوعه التصديق بالرسول محمد ﷺ الذي لنا فيه

---

(١) سورة «المائدة» الآية: (١١٩).
(٢) سورة «الأحزاب» الآية: (٣٥).
(٣) أخرجه الطبراني وهو في «صحيح الترغيب والترهيب»(٢٩٢٨).
(٤) أخرجه أحمد، والطبراني، كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٧٣٣).

أسوة، قال تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾[1]

قال ابن القيم: «**فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾**[2]

قال قتادة: « **كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود، وعن العبادة**».

قال مقيِّدُه ـ عفا الله عنه: «ولمَّا كان الرسول محمد ﷺ محل الصدق والتصديق كما قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾**.[3] أسوة في الصدق والتصديق، فهو ﷺ خير قدوة لأصحابه من الأنصار والمهاجرين، وهو خير قدوة لكافة المؤمنين إلى يوم الدين، قدوة للصادقين في مواقفهم الرجوليّة، فشاورهم في غزوة الخندق بخصوص مواجهة الأحزاب، ثم أشار على سلمان الفارسي بحفر الخندق، وقام هو بنفسه بالحفر معهم، ونقل التراب حتى اغبر بطنه، وكان الصحابة إذا اعترضتهم صخرة نادوا عليه فيأخذ المعول ويفتت الصخرة، وكان يردد معهم ويرتجز.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[4] ولم يبيّن هنا الآية التي وعدهم إياه فيها، ولكنه بيَّن ذلك في سورة «البقرة» في قوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾**.

---

(١) سورة «الأحزاب» الآية: (٨).
(٢) سورة «القصص» الآية: (٦٥)
(٣) سورة «الأحزاب» الآية: (٢١).
(٤) سورة «الأحزاب» الآية: (٢٢).

قال الشنقيطي: «**وممن قال أن آية البقرة المذكورة مبيِّنة لآية الأحزاب هذه: ابن عباس، وقتادة، وغير واحد وهو ظاهر**».

﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[1]

رجال مؤمنون لأنهم:

١- صادقون، ولم تكن لهم مواقف ملتوية أو مواقف خذولة..

٢- واستعمل العهد في حقهم كمن كان عليه دَيْن وقضى دَيْنه. بمعنى وفَّاه..

٣- واستعمل النحب وهو هنا بمعنى النذر الذي يلتزم به الشخص، والنَّحب: النذر والعهد، نذر الصدق في جميع المواطن، ولا يقضيه إلا بالموت، أو القتل.

٤- واستعمل الانتظار كمن ينتظر الشهادة في سبيل الله وفاء بالعهد. فإذا كان وفّى البعض، فهو ينتظر تمام الوفاء بالعهد. وأصل القضاء: الإتمام والإكمال.

٥- وما بدلوا النذر ولا العهد. وهم في خلاف مع المنافقين في هذه الصفات.

﴿**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ . . .**﴾[2]

لذا بيّن الله تعالى أنه أتى بالأحزاب ليجزي الصادقين بصدقهم فقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[3]

والتصديق بالنبي ﷺ شهادة على شهادة فاز بها خزيمة الأنصاري، فقد أخرج أبو داود، والنسائي، وأحمد، عن عُمَارَةُ بْنِ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيُّ أَنَّ عَمَّهُ حَدَّثَهُ وَهُوَ

(١) سورة «الأحزاب» الآية: (٢٣).
(٢) سورة «الأحزاب» الآية: (٢٤).
(٣) سورة «الحجرات» الآية: (١٥).

مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَساً مِنْ أَعْرَابِيٍّ فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَشْيَ وَأَبْطَأَ الأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الأَعْرَابِيَّ فَيُسَاوِمُونَ بِالْفَرَسِ لاَ يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمُ الأَعْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ عَلَى ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي ابْتَاعَهُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَنَادَى الأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعاً هَذَا الْفَرَسَ فَابْتَعْهُ وَإِلاَّ بِعْتُهُ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الأَعْرَابِيِّ فَقَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ». قَالَ الأَعْرَابِيُّ: لاَ وَاللَّهِ مَا بِعْتُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلَى قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ».

فَطَفِقَ النَّاسُ يَلُوذُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالأَعْرَابِيِّ وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ، فَطَفِقَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيداً يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ. فَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلأَعْرَابِيِّ وَيْلَكَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيَقُولَ إِلاَّ حَقًّا. حَتَّى جَاءَ خُزَيْمَةُ فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاجَعَةِ الأَعْرَابِيِّ، فَطَفِقَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيداً يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ. قَالَ خُزَيْمَةُ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ. فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: «بِمَ تَشْهَدُ». فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ.

ومِمَّا امتنَّ الله تعالى على خزيمة الأنصاري ما رواه الإمام البخاري عن زَيْدَ بْنِ ثَابِتٍ – رضى الله عنه – قَالَ: «نَسَخْتُ الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، فَفَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ «الأَحْزَابِ»، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا، فَلَمْ أَجِدْهَا إِلاَّ مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيِّ الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَتَهُ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾».

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

قال تعالى:

﴿ .. وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾. [1]

معنى الربّاني:

الربُّ «اسم الفعل» في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام. ولا يقال الربُّ مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، ويقال: ربُّ الدار، وربُّ الفرس، لصاحب كل منهما، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فأنساه الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾. [2]

والربّانيون: واحدهم **ربّاني**، منسوب إلى الربِّ، قال شيخ المفسرين السَّلفي ابن جرير الطبري ـ رحمه الله: «**وأولى الأقوال عندي بالصواب في الربانيِّين أنهم جمع ربّاني، وأن الربّاني المنسوب إلى الربّان: الذي يربي الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويربّها، ويقوم بها**». وقال القرطبي –رحمه الله–: «**والربّاني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره؛ وكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور**». وقال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله: «**الربّاني هو الذي يربي الناس على شريعة الله بالعلم والدعوة والعبادة والمعاملة، فالربّاني منسوب إلى التربية وإلى الربوبية، فباعتباره مضافاً إلى الله ربوبية، وباعتباره مضافاً إلى الإصلاح تربية**».

(١) سورة «آل عمران» الآية: (٧٩).

(٢) سورة «يوسف» الآية: (١٢).

صفات أساسية في الرباني

أولاً: الربّاني: (المصلح الذي يعمل بعلمه)

روى ابن سعد بسند صحيح، عن التابعيِّ الجليل أبي عبد الرحمن السلمي:

«إنا أخذنا هذا القرآن عن قوم ـ كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، ـ رضي الله عنهمً ـ أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهنَّ إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهنَّ، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم ليشربونه شرب الماء، لا يجاوز تراقيهم، بل لا يجاوز ها هنا ـ ووضع يده على الحلق ـ». (١)

وقال أبو عمر الزاهد: **«سألت ثعلباً عن هذا الحرف ـ وهو الربّاني ـ؟ فقال: سألت ابن الأعرابي فقال: إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له: الربّاني، فإن خَرَمَ عن خصلة منها لم يقل له ربّاني»**. (٢)

وقال القرطبي ـ رحمه الله: فمعنى **الربّاني**: **«العالم بدين الربّ الذي يعمل بعلمه، لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم»**.

قلت: **فالربّاني**: أسوة وقدوة، يربّي الناس على منهج النبوَّة والسَّلَف، يبدأ بهم متدرِّجاً إلى أن يصل بهم في التربية مبلغ الرِّجال الذين يشبهون الصحابة سمتاً وهدياً.

والربّاني: يشغل الوظيفة التي شغلها الأنبياء، فهي وظيفة سامية عالية الدرجة.

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله: **«لا توجد في الإسلام وظيفة أشرف قدراً، وأسمى منزلة، وأرحب أفقاً، وأثقل تبعة، وأوثق عهداً، وأعظم أجراً عند الله من وظيفة العالم الديني، ذلك لأنه وارث لمقام النبوة، وآخذ بأهم تكاليفها وهو الدعوة إلى الله، وتوجيه خلقه إليه، وتزكيتهم وتعليمهم وترويضهم**

---

(١) «الطبقات الكبرى» (١٧٢/٦).

(٢) «كتاب» الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٥١/١).

على الحق حتى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا به، ويعملوا له». [1]

ثانياً: الربّاني: (العالم، الفقيه، الحكيم)

قال أبو رزين فيما أخرجه ابن جرير: «**الربّاني: هو العالم الحكيم**». ونقل القرطبي قول أبي عبيدة: «سمعت عالماً يقول: «**الربّاني العالم بالحلال والحرام، والأمر والنهي، العارف بأنباء الأمة، وما كان وما يكون**». وقال ابن كثير: قال ابن عباس وغير واحد: «**أي: حكماء علماء حلماء**». وقال الحسن وغير واحد: «**فقهاء**».

ولقمان من **الربّانيين** الحكماء قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾، [2] ومن تدبَّر حكمة لقمان وجد في موعظته التدرج في التربية، حيث بدأ بالتوحيد ومسائل الإيمان، وحث على طلب العلم النافع من الكتاب والسُّنَّة بفهم سَلفيّ، وأمر أن يُعبد الله وفق ما نصَّت عليه النصوص الصحيحة التي أوحى بها الله، وأمر بالتحلي بالأخلاق الحسنة، ودعا إلى الله على بصيرة بفقه وحكمة؛ ومن فروعها معرفة الرجال والحكم عليهم.

وقد عرَّف أبو العالية الحكمة بقوله: «**الكتاب والفهم**». وقال ابن ميلق فيما نقله البقاعي في «نظم الدرر»: «**الحكمة؛ مدارها على إصابة الحق والصواب في القول والعمل**».

وقد جاء في سورة «لقمان» ما يبين خطورة الجدال بغير علم، وأنه ضد الحكمة فقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ**

(١) «وظيفة علماء الدين» (ص:٥).
(٢) سورة «لقمان» الآية: (١٢).

كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ(٢١)﴾.[١]

ثالثاً: الربّانيون أكابر الناس، والبركة معهم

وقد بيَّن النبي ﷺ أن البركة مع **الربانيين** بقوله: «**البركة مع أكابركم**».[٢] وعليه فلا يفلح من كان على خلافهم، بل يكون من خالفهم ممن نسب نفسه إلى أهل العلم من الأصاغر؛ لقوله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر**».[٣]

وقد ذكر أبو عبيد في تأويل هذا الخبر عن ابن المبارك أنه كان يذهب بالأصاغر إلى أهل البدع، ولا يذهب إلى السن. وقال المناوي ـ رحمه الله: «**البركة مع أكابركم المجربين للأمور، المحافظين على تكثير الأجور، فجالسوهم لتقتدوا برأيهم، وتهتدوا بهديهم، أو المراد: من له منصب العلم، وإن صغر سنه، فيجب إجلالهم حفظا لحرمة ما منحهم الحق سبحانه**».

قلت: وما صار **الربّانيون** أكابر الناس إلا لأنهم أخلصوا للربِّ متعبدين له، وأمروا غيرهم بعبادة الله على الوجه الصحيح المعتبر في الكتاب والسنة، وأمروا الناس باتباع هدي السلف الصالح.

وأقول: هل قال أحد من الأنبياء والرسل ﴿**كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾؟ أبداً حاشا أن يقول أحد منهم هذا. إن هذا القول يتنافى مع حقيقة إخلاصهم لله في العبادة. ويتنافى مع الرسالة التي بعثوا من أجلها، قال ابن كثير: «**وإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى**». ولهذا قال الحسن البصري: «**لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس**

---

(١) سورة «لقمان».

(٢) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٧٨).

(٣) ذكره ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٦٩٥).

بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعني أهل الكتاب - كانوا يَتعبَّدون لأحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (١)

فقوله تعالى في مطلع الآية: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال الشيخ محمد صالح العثيمين - رحمه الله: «**هذا لا يمكن؛ لأن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوَّة إنما جاء لضدِّ هذه الأشياء، ليمحق هذا الشيء، لا ليدعو الناس إليه**».

فالأنبياء والرسل أمروا الناس فقالوا: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ كوناً شرعياً، قال ابن عثيمين: «**لا يملك أن يقول لهم كونوا كوناً قدرياً، لكن يملك أن يأمرهم شرعاً بأن يكونوا ربّانيين**».

وقوله تعالى في الشطر الأول من الآية موضوع البحث: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ..﴾ قال ابن كثير: «**فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أَمَرَ الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام. إنما يَنْهَوْنهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام. فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعينَ، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق**».

والربّانيون صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع فجاهدوا في جميع ميادينه، فهم ولله الحمد على علم وفقه وحكمة وورع، قال الشيخ محمد

---

(١) سورة «التوبة» الآية: (٣١).

البشير: «فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإنَّ القَبوْلَ جزاء من الله على الإخلاص يجعله لعباده المخلصين». ثم قال: «وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العلم وصولة الملك، وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل، وأخضع الملك في رعونته لأحمد بن عبد السلام ـ شيخ الإسلام بن تيمية ـ، وإن موقف هذين الإمامين من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن في عاقبتهما الحميدة لآية من الله على تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره».

رابعاً: الربّانيون فوق العلماء والأمراء

أخرج ابن جرير عن مجاهد قوله في الربانيِّين: «الفقهاء العلماء، وهم فوق الأحبار». وقال الشيخ محمد البشير ـ رحمه الله: «وكانوا ملوكاً على الملوك، واقفين لهم بالمرصاد، لا يقرونهم على باطل ولا منكر، ولا يسكتون على مخالفة صريحة للدين، ولا يتساهلون معهم في حق الله، ولا يترضونهم فيما يسخط الله».

قلت: كل هذا يفعلونه في علاقتهم مع الآخرين بفقه وحكمة ووفق الضوابط والأحكام الشرعية، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يخافون في الله لومة لائم. قال ابن وهب: «سمعت مالكاً يقول: «لقد أدركت بالمدينة أقواماً لو استسقى بهم القطر لسقوا، وقد سمعوا من العلم والحديث شيئا كثيراً، وما أخذت عن واحد منهم، وذلك أنهم كانوا قد ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، وهذا الشأن يعني الحديث والفتيا يحتاج إلى رجل معه تقى، وورع، وصيانة، وإتقان، وعلم، وفهم، ويعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه غداً يوم القيامة، فأما الزهد بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به، وليس هو بحجة ولا يحمل عنهم العلم».

وقال ابن وهب أيضاً: «نظر مالك إلى العطان بن خالد فقال: «بلغني أنكم

تأخذون من هذا! فقلت: بلى، فقال: ما كنا نأخذ الحديث إلا من الفقهاء». [1]

«فالعالم الربَّاني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربَّاني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفه بما خالفها.

ومعنى الربَّاني في اللغة: الرفيع الدرجة في العلم العالي المنزلة فيه، وعلى ذلك حملوا قول الله تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمْ الربَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾. [2] وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾». [3]

خامساً: الربّانيُّ بصير بالسّياسة

قال النحاس معلِّقاً على قول مجاهد: «الفقهاء العلماء، وهم فوق الأحبار»، «وهو قول حسن، لأن الأحبار هم العلماء، والربّاني: الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة».

قلت: والمقصود بالسياسة: السياسة الشرعية المحكومة بالضوابط والأحكام الربّانية، وهي كما قال النووي في «شرح مسلم»: «القيام على الشيء بما يصلحه».

وقد جاء ذكرها في السُّنَّة النبوية ففي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي». [4]

وقال العلاَّمة الشيخ محمد راغب الطباخ ـ رحمه الله: «كثير من الناس ـ ممن لم يقرؤوا القرآن، أو لم يتدبَّروا آياته ـ يظنون أن كتاب الله تعالى خال من الآيات السياسية، ومن الأمور التي إذا روعيت تكون سبباً لحياة أمة بعد موتها، ولعزتها

(١) إسعاف المبطأ برجال الموطأ (صفحة:٤٠) للسيوطي.
(٢) سورة «المائدة» الآية: (٦٣).
(٣) قاله: الخطيب البغدادي في كتابه «الفقيه والمتفقه»(٥١/١).
(٤) متفق عليه، وأخرجه أحمد، وابن ماجه.

بعد هوانها، ولكثرتها بعد قلتها، ولغناها بعد فقرها، ولاستعادة ما كان لها من مجد وما سلف من حول وطول. في حين أن كتاب الله فيه تبيان كل شيء؛ فيه كل ما يعود على المجتمع البشري بالسعادة في معاشه، في دنياه وآخرته». [1]

وابن جرير ـ رحمه الله ـ عرَّف بصيرة **الربّاني** بالسياسة بعد أن أخرج أقوال السَّلَف في معنى ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ فقال: «**والربّاني**: هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين، يَرُبُّ أمور الناس بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله، والوالي الذي يلي أمور الناس، على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق بالقيام فيهم، بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة النفع عليهم في دينهم ودنياهم، وكانوا جميعاً مستحقين أنهم ممن دخل في قوله عز وجل ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾. **فالربّانيون** إذاً: هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار، لأن الأحبار هم العلماء»، **والربّاني**: الجامع إلى العلم والفقه؛ البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم».

وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال الضحاك: «حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً». وقال ابن كثير: ﴿تعلِّمون﴾: أي تفهِّمون، وقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تحفظون ألفاظه.

وقال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله: «الباء هنا للسببية، أي: بسبب تعليمكم الكتاب ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ لأن الذي يعلم الكتاب مربٍّ. ولهذا كلما كثر الطلبة عند شخص كثرت تربيته للناس؛ لأن المفروض في المعلم أن لا يكون معلماً للناس تعليماً نظرياً جدلياً؛ لأن هذا يمكن أن يدركوه بالكتب، لكنه ينبغي

(١) مجلة «الفتح» المصرية.

أن يعلمهم تعليماً نظرياً وتعليماً تربوياً، وهذا هو هدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه، إذا نظرنا إلى السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول ﷺ يعلم الناس تعليماً مقروناً بالتربية مصحوباً بها، وإذا تأملنا سيرة الخلفاء الراشدين وجدناها كذلك، فلننظر مثلاً إلى سيرة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقد رفع عقوبة الخمر إلى ثمانين ليردع الناس. فالحقيقة أن المعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علماً فحسب، ولكن الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علماً وأخلاقهم تربية».

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله: «**والذي يظهر من سيرة عمر في أمرائه الذين كان يؤمِّرهم في البلاد أنه كان لا يراعي الأفضل في الدين ـ فقط ـ بل يضم إليه مزيد المعرفة بالسياسة، مع اجتناب ما يخالف الشرع منها**». [1]

فمن طعن بعلمائنا السَّلفيِّين أنهم لا يفهمون «بالسِّياسة»، أو أنهم «مسيَّسون»!!، أي: أنهم ألعوبة بيد غيرهم، فأقول ردّاً على هؤلاء: الربّانيون هم أكثر الناس ولله الحمد؛ معرفة بالسِّياسة، وعندهم بصيرة نافذة. قال الشيخ محمد البشير -رحمه الله-: «**أرأيت لو كان علماء الدين قائمين بواجب التذكير بالقرآن، مؤدين لأمانة الله، راعين لعهده في أمة محمد، أكانت الأمة الإسلامية تصل إلى هذه الدركة التي لم تصل إليها أمة؟ فهي كثيرة العدد تبلغ مئات الملايين، ولكنها غثاء كغثاء السيل**».

ثم قال: «**إن علماء القرون المتأخرة ركبتهم عادة من الزهو الكاذب والدعوى الفارغة، فجرَّتهم إلى آداب خصوصية**». وذكر ـ رحمه الله ـ من هذه الآداب: لزوم البيوت، أو المساجد، كما يلزم التاجر متجره ينتظرون أن يأتيهم الناس، يتوكؤون في ذلك بكلمة إن صدقت في زمان، فإنها لا تصدق في كل زمان، وهي: «**إن العلم يؤتى ولا يأتي**».

---

(١) «فتح الباري» (٢١١/١٣).

قلت: مع فارق معاكس وفي الشطط، فهُمْ على خلاف الفريق الأول الجامدين، الذين اكتفوا بالزوايا دروشةً، أو في كليات الشريعة خلطاً. فتحركوا بالخروج وهو خروج باطل لسببين:

الأول: أن هذا الخروج بدعة محدثة اعترفوا هم باستحداثه منذ إنشاء حزب الدعوة والتبليغ.

الثاني: أن هذا الخروج لا داعي له بسبب ما عندهم من جهل بكلمة التوحيد، فإن رؤوسهم عدا عن أتباعهم في معظم المناطق التي ينتشرون فيها لا تعرف معنى التوحيد الذي جاءت به الرسل والأنبياء.

وهناك فريق آخر تحمَّس سياسة النفاق للوصول إلى الحكم؛ من باب أن يكون الحكم بما أنزل الله، فلم يوفقوا ولن يوفقوا لسببين:

الأول: أنهم إذا أرادوا السياسة الشرعية فليس منهجهم منها في شيء.

الثاني: أنهم إذا أرادوا سياسة النفاق التي عليها الساسة فهذا مناقض لإعلانهم.

سادساً: الربّانيون هم أهل الذكر، ومن الواجب الرجوع إليهم بالسؤال

قال ابن كثير: قال الضحاك: «**حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً**»، وقد جاء اقتران **الربّاني** مع الأنبياء في سورة «النحل» على اعتبار ما عندهم جميعاً من الخير والبيان، فالنحل يصنع عسلاً، والعسل شفاء، قال تعالى في السورة: ﴿**يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**﴾[1]، وكذلك الربّاني يفعل ما يفعله الأنبياء لأنه وارث لهم، قال تعالى في السورة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ**

(١) الآية: (٦٩).

وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٤٤)﴾ .

وجاء اقتران **الربَّاني** مع الأنبياء في سورة «الأنبياء» فقال تعالى : **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٧)﴾** على اعتبار بشريتهم وأنهم من الناس، قال تعالى في الآية التالية : **﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(٨)﴾**، قال ابن كثير ـ رحمه الله : **«أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام»** . وعليه فلا يجوز الغلو في الأنبياء وغيرهم من الأولياء، بحيث يُسْألوْنَ أو يُعبَدون من دون الله تعالى .

فمن تدبَّر كتاب الله تعالى ووقف على معانيه الصحيحة المسندة عن رسول الله ﷺ، أو الصحيحة المسندة عن صحابته ـ رضوان الله عنهم ـ تحصل على البصيرة، ومن تحصَّل على البصيرة كان حكيماً عليماً . فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن لله أهلين من الناس» . قالوا : من هم يا رسول الله؟ قال : «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»** . [١]

ولا شك أن أهل الله وخاصته هم أهل الذكر ومن تبعهم على منهاج النبوة والسلف، فقد صح عنه ﷺ أنه قال : **«خياركم ـ وفي رواية ـ خيركم من تعلم القرآن وعلَّمَه»** . [٢]

قال بعض العارفين : **«إن الناس لمّا حفظوا قواعد التجويد شُغِلوا عن الخشوع في التلاوة»** . فكتاب الله تعالى يحتاج إلى التدبَّر والتعلم والتفقه، من أجل العمل به، لا الوقوف فحسب عند قواعد التجويد، أو عند الحفظ دون دراية، فالله تعالى يقول : **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** . [٣]

(١) رواه النسائي، وابن ماجه، وغيرهما وهو في «صحيح الجامع» (٢١٦٥).
(٢) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١١٧٣).
(٣) سورة «محمد» الآية: (٢٤).

فتعلم القرآن وتعليمه فيه نفع كبير للأمة، فعلى المسلمين الاهتمام بتعلم القرآن كما نزل لفظاً ومعنىً، علماً وعملاً، وإلا كان شأنهم شأن أهل الكتاب الذين غلَوا في دينهم فابتدعوا في معاني كتبهم ما لم ينزل الله به سلطاناً، بل تجاوزوا الحد فلعبوا تحريفاً في ألفاظه، وما شأن المبتدعة في أمة محمد إلا شأن هؤلاء الماضين من أهل الكتاب، تلاعبوا في معاني كتاب الله وحمَّلوه ما لم يحتمل فضلوا وأضلُّوا، فكان منهم: الخوارج، والمعتزلة، وحزب التحرير، والأشاعرة، وحزب الإخوان، والماتريدية، وحزب الدعوة والتبليغ، والصوفية، والشيعة، وحزب الجهاد الإسلامي، والجبرية، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، وغيرهم من أهل الضلال. لذلك جاء أمر الرسل والأنبياء ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ من باب الحفاظ على منهاج الرب.

والربّانيون بعد الرسل والأنبياء أولى الناس بالدفاع عن دين الرب عز وجل وكشف فرية المبتدعة وأهل الأهواء.

سابعاً: الربّاني قائد؛ ميدانه النفوس

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله: «**فالعالم بمفهومه الديني في الإسلام قائد؛ ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسُّنَّة، وتفسيرهما العملي من فعل النبي ﷺ وفعل أصحابه، وعونه الأكبر على الانتصار في هذا الميدان أن ينسى نفسه، ويذوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن يطرح حظوظها وشهواتها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوة أن يزكي ويعلِّم، وأن يقول الحقَّ بلسانه، ويحققه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما آتاه الله من قوة، أما الوسيلة الكبرى في نجاحه في هذه القيادة فهي أن يبدأ بنفسه في نقطة الأمر والنهي**».

الخوارج قومٌ حُسَّدٌ
وخطورةُ الحَسَدِ على الإيمان

لمّا انتهت قصة يونس ﷺ في سورة «القلم»، واجتمع بانتهائها كل الفوائد والاعتبارات، ختم الله السورة بالكشف عن خلق ذميم مرذول لا يفطن لخطورته كثير من الناس؛ ألا وهو الحسد الذي منبعه الحقد والكراهية فقال: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾.[1]

فبيَّن الله تعالى بالغ عداوة الكفّار لرسوله ﷺ فذكر أن هذه العداوة سرت من القلب إلى النظر فقال: ﴿**لَيُزْلِقُونَكَ**﴾ ومعنى زلَّقه وأزلقه: أزاله عن مكانه، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، فيما أخرجه ابن جرير الطبري: «**لينفذونك بأبصارهم من شدة النظر من العداوة والبغضاء**».

وجاء قوله: ﴿**لَيُزْلِقُونَكَ**﴾ بلام التأكيد للإشعار بتصميمهم على هذه الكراهية، وحرصهم عليها. وقال الحافظ: «**حقيقة العين نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر**».[2] وقال القرطبي: «**أرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه**».[3] ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم للنبي ﷺ ﴿**لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ**﴾ ﴿**إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾ فقرن الله تعالى النظر بسماع القرآن.

---

(١) سورة «القلم» الآية: (٥١).
(٢) «فتح الباري» (١٠/٢٠٠).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/٢٥٤).

ولمّا كان الداعي إلى حسد الخبثاء سماع القرآن العظيم لأنه النِّعمة العظمى أكَّد الله على أهميته وأغلق السورة بذكره، فمن أراد الانتفاع فعليه بالقرآن، ومن أصر على الضلال فهو المفتون المجنون، لذا فوَصْفُ الكفّار للنبي ﷺ بالجنون سببه: الحسد والاستكبار ومن ثمَّ العناد والكفر.

وغطى الحسد **(الداء الخبيث)** على أقوام فتركوا الحق وقد عرفوه، فأمية بن أبي السلط يقر برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: «**لا أومن برسول ليس من ثقيف**».[1] فهو كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)**﴾.[2]

وأبو جهل يقول: "**والله ما كذب محمد قط، ولكن إذا كانت السدانة والحجابة في بني هاشم ثم النبوَّة فما بقي لنا**»؟!.[3] وأبو طالب يرى المعجزات ويقول: «**إني لأعلم أنك على الحق، ولولا أن تعيَّرني نساء قريش لأقررت بها عينك**»![4]

والغاية في بيان معمول الحسد "النفس الخبيثة"، لأن الحسد مرض فتاك حذَّر منه النبي ﷺ فقال: "**دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء**».[5] فهو داء مستمر في الأمم والشعوب منذ خلق الله آدم، كما قال ابن القيم: «**والحسد هو الذي جرّأ أحد ابني آدم على أخيه**».[6]

بل هو أول داء بادر إليه إبليس – نعوذ بالله تعالى منه – حتى أوصله هذا الداء لأن يكون في عداد الكافرين كما قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ**

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي، (ص: ١٠٤).
(٢) سورة «المدَّثِّر».
(٣) «صيد الخاطر».
(٤) «صيد الخاطر».
(٥) «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٣٨).
(٦) «الفوائد» (ص:٥٨).

بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)﴾[1]

فهذه الآية أبرز الله تعالى فيها الداء والنتيجة. الداء: الحسد، والنتيجة: الاستكبار، والعناد، والكفر. ثم فصَّل: ففي سورة "الأعراف" بيَّن موقف إبليس في أول ابتلاء تعرَّض له، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾**

فإنه في الابتلاء الأول لم يكن من الساجدين، لماذا؟ ما الداء الذي لم يجعله في عداد الساجدين؟ **﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾**

الجواب: الحسد، وهو الداء الذي لم يجعل إبليس في عداد الساجدين، والسجود لله نعمة أنعم الله بها على المؤمنين، كما أنعم على الملائكة، والحاسد سُلب نعمة السجود لله، لأنه أصيب بداء الحسد. روى ابن القاسم عن مالك أنه قال: «**بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر، حسد إبليس آدم**».[2] وقال قتادة: «**حسد إبليس آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة؛ فقال: أنا ناري وهذا طيني**».[3]

وفي سورة «الإسراء» انتقل إبليس بداء الحسد إلى الاستكبار -نعوذ بالله من الفتن-، لذا فشؤم حسده أوقعه في شؤم استكباره، وشؤم استكباره أوقعه في شؤم كفره، فصار الحسد نتيجة فضَّاحة لما انطوت عليه نفسه من الخذلان. كما

---

(١) سورة «(ص)».

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٢٩٦/١).

(٣) المصدر السابق.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً(٦١)**﴾.

فقوله تعالى في هذه الآية عن إبليس: ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**﴾ يدل فيه إنكار إبليس للسجود - بهمزة الإنكار على إبائه واستكباره عن السجود - لمخلوق من طين، وصرح بهذا الإباء في قوله تعالى ﴿. . **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾[1]. وصرح بهما معاً - الإباء والاستكبار - في قوله تعالى: (. . **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**)[2]

قال الشيخ السِّعْدِيُّ -رحمه الله-: «**وهذا الإباء منه والاستكبار؛ نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه؛ فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره**». ومعلوم أنَّ الإباء شدة الامتناع، فكل إباء امتناع، وليس كل امتناع إباء.

وهكذا حصل لغير إبليس أمثال: بلعام الإسرائيلي، وعبد الله بن أبي بن سلول، وغيرهم، حسدوا من أعطاه الله النعمة العظمى، وهي القرآن والعمل به وبالسُّنَّة.

وهكذا اليهود: فإنَّ داءهم الدفين هو الحسد والعجب بالنفس، فجرَّهم إلى الكفر بمحمد ﷺ قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . . .**﴾[3]

وهذه الآية نزلت في ذكر استفتاح اليهود من الله تعالى على العرب في وقائعهم مع حِمْيَر وبني كهلان باسم محمد -عليه السلام-، قائلين: "**اللهم أنصرنا عليهم**

(١) سورة «الحجر» الآية: (١١).
(٢) سورة «البقرة» الآية (٣٤).
(٣) سورة «البقرة».

بالنبي الذي نجد نعته في التوراة».[1] ويقولون لهم: «**قد أطل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم به قتل عاد وإرم**».[2] ويَرَوْن أنَّهم أنصارُهُ وأعوانُهُ لما ينتظرون مبعثه.

فلما جاءَ هم الرسول- صلى الله عليه وسلم- الذي عرفوا صفاته ونبوَّته من التوراة معرفة لا يخالجها ريب؛ حسدوه، لأنَّه من العرب أولاد إسماعيل، لا عِرْقَ فيه من اليهود، ولم تطاوعهم أنفسهم في ترك ما اعتادوه فكفروا به. - والأمثلة في هذا الباب كثيرة لا يمكن حصرها الآن -. فوقعوا في الخيانة، ومن ثم كانت النتيجة تكفير بعضهم بعضاً فحصل الهرج ومن ثم الطرد من **المسجد الأقصى**، شبيهاً بطرد إبليس من الجنة لمّا حسد واستكبر.

لذا فقوله ﷺ: «**إنَّ اليهود قوم حسَّد**».[3] لم يكن من فراغ، أو مجرد اتهام لهم، بل كان من باب حقيقتهم: أنَّهم يعلمون الحق، ويعلمون عظمة النعمة التي وهبها الله لغيرهم، وسلبها منهم بسبب حسدهم واستكبارهم.

وكفّار قريش كانوا على طريقة اليهود في بغضهم وحسدهم للنبي ﷺ عند أول ابتلاء حصل لهم، قال تعالى: ﴿**بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . (٣٢)**﴾[4]

فلم يبتل الله تعالى كفار قريش بالعذاب بل كما قال: ﴿**مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ**

---

(١) «تفسير البغوي» (١/٢٣٤).
(٢) «المصدر السابق».
(٣) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» لشيخنا الألباني رقم: (٦٩١).
(٤) سورة «الزخرف».

حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ فبدأ ابتلاؤهم ببعثة محمد ﷺ ودعوته لهم إلى الحق، وحين جاءهم بالحق من عند ربهم، لكى يخرجهم من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان . . قالوا - على سبيل الجحود والعناد - : هذا الذي جئتنا به السحر، وإنَّا به كافرون. والتعبير بقوله: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾** يشعر بأنَّ الحق قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم في البحث عنه، ومع ذلك فقد استقبلوه بالتكذيب والجحود والإنكار.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيم﴾ والمراد بالقريتين مكة والطائف. فاستكثروا حسداً أن ينزل هذا القرآن على محمدً ﷺ الذى وإن كان في القمة من الشرف والسمو بين قومه؛ إلا أنَّه لم يكن أكثرهم مالاً وسلطاناً، وهم يريدون أن تكون النبوَّة في زعيم من زعمائهم، أو رئيس من رؤسائهم . قال الشيخ السعدي -رحمه الله- : «**فهذا الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عناداً وهو متجاهل، قصده ترويج ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ وجده رجل العالم، وهمامهم ومقدمهم في العقل والعلم واللب والرزانة، ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة والشجاعة والكرم، وكل خلق فاضل، وأنَّ المحتقر له والشانيء له قد جمع من السفه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعدوان ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلاً وضلالاً أن يقدح بهذا الرسول العظيم والهمام الكريم**».

وقد وبخهم الله تعالى على جهلهم وحسدهم وقال: **﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾** فالاستفهام للإنكار والتهكم بهم. ثم بيَّن سبحانه مظاهر قدرته فى خلقه فقال: **﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾** قال ابن كثير -رحمه الله- : « **أي: نحن نتصرف في خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة في ذلك، وهكذا نعطي النبوَّة لمن نريد**».

وهكذا نجد داء الحسد يظهر عند كل ابتلاء ببعثة نبي أو رسول، أو ببعث لتجديد

الرسالة قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦)﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠)﴾[2]

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾[3]

وهذا شبيه بقول الحسّاد من بني إسرائيل في سورة "البقرة" بعد أن ابتلوا بطالوت، وقد قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: ﴿. . إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾

إنَّهم سخروا من طالوت لأنَّه لم يؤت سعة من المال، فالسخرية والاستهزاء ترجمة لما في نفوسهم من داء الحسد، والمبتدعة في أمة محمد ﷺ على طريقة اليهود في الحسد، وعلى طريقة كفّار قريش في الحسد، وعلى طريقة الكفّار في كل زمان، ولم يظهر داء الحسد - هذا الداء الفاسد الخبيث - في آخر الزمان على الصورة الواضحة - التي نراها اليوم - إلا بعد فتنة الهرج التي أحدثتها المبتدعة

(١) سورة «القمر».
(٢) سورة «(ص)».
(٣) سورة «الأنعام».

الخوارج، فالخوارج قوم حُسَّد، وهذه من صفاتهم الخبيثة، وكان قد بادر إلى هذا الداء زعيمهم ذو الخويصرة حين قال للنبي ﷺ "**اعدل**».

ومعلوم أنَّ الخوارج طلاَّب دنيا؛ وإن زعموا الزهد والتدين. ورؤوس الخوارج من حيث العلم بالحق أشبه باليهود، فإنهم لمّا وقفوا على تفاصيل النعمة التي وهبها الله لأهل الحق والسّنّة الذين هم على منهاج النبوَّة والسلف، انطلقوا إلى التشنيع بهم حسداً من عند أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**.. (١٠٩)﴾[١]

لذا قال ابن القيم -رحمه الله-: "**والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك**».[٢]

ومن أدقَّ النعم التي حسدوا المؤمنين عليها: نعمة تحية السلام لما فيها من إفشاء المحبة، ونعمة يوم الجمعة لما فيه من اجتماع الصف والكلمة، ونعمة ضبط المصلّين (آمين) خلف الإمام لما لها من ثواب عظيم.

ومعلوم أن المبتدعة حسّاد لأهل السّنّة فهم يعملون على تفريق المسلمين وتفريق كلمتهم، ولا يحبّون اجتماعهم على خير، ويحسدونهم على أقل الأعمال التي من مردودها الثواب الجزيل. وقد وصف النبي ﷺ داء الحسد والبغضاء بقوله: «**هي حالقة الدين لا حالقة الشعر**».[٣] وقال: «**ولا يجتمعان في قلب عبد الإيمان والحسد**».[٤]

والمبتدعة يبغضون السّنّة وأهلها، ويبغضون الحق وأهله، ويبغضون العدل والإنصاف، ويتظاهرون بمحبتهم للقرآن، ومحبتهم للنبي ﷺ، ومحبتهم

---

(١) سورة «البقرة».
(٢) «الفوائد» (ص:١٥٩).
(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٣٨).
(٤) «صحيح سنن النسائي» (١٨١/٧).

للأعمال الصالحة، وفي حقيقتهم قوم حُسَّد. يحسدون أهل الحق على إخلاصهم، وصدقهم، وحبّهم للسّنّة والعمل بها، وحبِّهم للقرآن والعمل به، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ. (١٧)**﴾[1]

ومعنى بغياً بينهم: حسداً وعداوة. وقال: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)**﴾[2]

ومن حسد المبتدعة الخوارج ما بيَّنه الله تعالى في سورة «النساء» بقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ(٤٤)**﴾

فإن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد، وما صدر منهم إلا بعد معرفتهم الحق، قال ابن كثير: "**أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع**». لذا قال الحكماء: «**كل أحد يمكن ان ترضيه إلا الحاسد فإنه لا يرضيه إلاَّ زوال نعمتك**».[3]

لذلك ولخطورة داء الحسد فإن الله عز وجل حذَّر من شر الحاسد إذا حسد في سورة الفلق، وأمر بالتعوّذ من شر الحاسد، سواء الحاسد من الإنس أو الجن، فإن إبليس حسد آدم، وقد نهى النبي ﷺ المؤمنين عن التحاسد فيما بينهم فقال: «**لا**

(١) سورة «الجاثية».
(٢) سورة «آل عمران».
(٣) «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (١/١٣٢).

تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً». وحث على التقوى، والنقاء، وسلامة الصدر، وذلك حين سأله الصحابة فقالوا: «**يا رسول الله! من خير الناس؟ قال: ذو القلب المخموم واللسان الصادق، قال: قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال: التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد**».

ومعلوم كما قال ابن القيم – رحمه الله – أن الحاسد لا يسمَّى حاسداً إلاَّ إذا قام به الحسد، وإذا استعاذ المسلم من شر الحاسد دخل فيه العائن وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

والحاسد والعائن يشتركان في الأثر فكلاهما يسعى لزوال النعمة من المحسود أو يؤدي عمله إلى ذلك، وكذلك يشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائن: تتكيف نفسه عند مقابلة المعيون ومعاينته، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره. ويختلفان في أن الحاسد يحسد في الأمر المتوقع قبل وقوعه بينما العائن لا يعين إلا الموجود بالفعل.

وأصل الحسد: هو بغض نعمة الله على المحسود، وتمني زوالها. كما قال الله تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)**﴾[1]

قال ابن كثير –رحمه الله–: «**يعني بذلك: حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوَّة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل**». وقال ابن القيم –رحمه الله–: «**الحاسد عدو النعم**».[2]

---

(١) سورة «النساء».

(٢) «ذم الحسد وأهله» (ص:١٧).

وقال السعدي -رحمه الله-: «**وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله.**

فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حَمَلهم الكفر والحسد على أن فضَّلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة الأصنام - على طريق المؤمنين . . . ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاءَ لله فيفضَّلون من شاؤوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسدُ للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله. ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾، وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوَّة والكتاب والملك الذي أعطاه من أعطاه من أنبيائه كـ «داود» و «سليمان». فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده المؤمنين. فكيف ينكرون إنعامه بالنبوَّة والنصر والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له؟.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عنادًا وبغيًا وحسدًا فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾تسعَّر على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة».

والمبتدعة عموماً إنما اختاروا بمحض إرادتهم طريق الضلالة فابتعدوا عن الحق وأهله، كما فعل إخوانهم من المنافقين تماماً، حسداً من عند انفسهم لمّا رأوا الدعوة السلفية وقد غرسها الله تعالى في القدس، فصدّوا عنها، واختاروا عن علم محاربتها ومقاطعتها لما عندهم من الحسد لها ولأهلها.

ونحن نحذِّرُهم أن يمضوا في هذا الطريق وعليهم أن يعودوا إلى رشدهم،

ويتوبوا، وقد ظنَّ كثير ممن تصدَّروا العلم في السعودية وغيرها من البلدان؛ أن الدعوة السلفية باقية عندهم على الرغم من مخالفتهم لها، فانتزعها الله منهم بسبب تلاعبهم بمسائل الإيمان، فكان من نعمة الله على الدعوة أن جعلها محفوظة؛ - بعيدة عن التلاعب بها -، فهي - اليوم - ولله الحمد لدى الطائفة المنصورة في القدس، وجعلها مصداقاً لقوله -عليه السلام-: «**عقرُ دار المؤمنين بالشام**».[1] وقال: «**ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام**».[2] وأقواله هذه ﷺ من أعلام نبوَّته.

وإذا قلنا أننا في الزمن الذي خرج فيه الخوارج، فهو آخر الزمان الذي أخبر به النبي ﷺ وهو زمن الهرج، وهو الزمن الذي قال فيه النبي ﷺ: «**سيصيب أمتي داء الأمم، فقالوا: يا رسول الله! وما داء الأمم؟ قال: الأشر، والبطر، والتكاثر، والتناجش في الدنيا، والتباغض، والتحاسد حتى يكون البغي**».[3]

ولا شك أن هذا الحديث - أيضاً - من أعلام نبوَّته ﷺ فحصل الذي حصل، حتى وقع التحاسد وكان البغي.

ونحن الطائفة المنصورة في القدس نقول لهؤلاء الحسّاد كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ الله الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . (١٢٤)**﴾[4]

وتقدَّم - في هذه المقالة - حسد أبي جهل للنبي - صلى الله عليه وسلم - فعندما سأله سائل: «**أتظن محمداً على حق أم على باطل؟ كان جوابه: إن محمداً لعلى حق، ولكن متى كنا لبنى هاشم تبعاً؟! أي: متى كانت أسرتنا تابعة لبنى**

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم: (١٩٣٥)
(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» لشيخنا الألباني رقم: (٣٠٩٢)
(٣) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم: (٦٨٠).
(٤) سورة «الأنعام».

هاشم»!!

وفي رواية أنه قال: «**تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه**». (١)

لقد علم السعوديون وغيرهم من أهل الخليج (الحسّاد) مكانة شيخ الإسلام محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله- فخانوه وعادوه.

تعال معي واقرأ ما كتبه شيخنا -رحمه الله- في مقدمة «سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيئ في الأمة» (١/ ٦): «**إني أنصح كل من أراد أن يرد عليَّ- أو على غيري- ويبيِّن لي ما يكون قد زلَّ بهِ قلمي، أو اشتط عن الصواب فكري، أن يكون رائده من الرد النصح والإرشاد، والتواصي بالحق، وليس البغضاء والحسد، فإنها المستأصلة للدِّين. كما قال ﷺ: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: البغضاء والحسد، والبغضاء هي الحالقة، ليس حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين». كما هو شأن ذوي الأهواء والبدع مع أهل الحديث وأنصار السنة في كل زمان ومكان، وكما فعل معي بالذات كثير منهم- ولا يزالون مع الأسف- كالأعظمي، والغماري، ومَن نحا نحوهم من المتعصبة الجهلة!**».

وقال - رحمه الله - في خاتمة تخريجه للحديث رقم (٣١٣٣) من «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: «**وأما الخلاص من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، وطعن الطاعنين؛ فلا سبيل إليه إلاَّ بالوفاة على الإيمان إن شاء الله تعالى**».

وقيل للحسن البصري: «**أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك لإخوة يوسف!**». (٢)

لكن الفرق بين المؤمن وغيره من الفسقة والمنافقين والمبتدعة والكفّار؛ أن المؤمن

---

(١) «التفسير الوسيط» (١/٣٦٠٢).

(٢) «ذم الحسد وأهله» لابن القيم (ص:٢٥).

يجاهد نفسه على دفع الحسد، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، أما الحسّاد فإنهم يرتبون على الحسد البغي والإيذاء، ويتمنون زوال النعمة عمَّن أنعم الله تعالى عليه، فهم يبغضونه ويعادونه.

وبناء على ما تقدَّم فيمكن:

أولاً: معالجة داء الحسد باتخاذ الإجراءات الآتية:

١- محبة المؤمن محبة صادقة خالصة لوجه الله تعالى.

٢- العمل بقوله تعالى: ﴿.. **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)**﴾.[١]

٣- التعلق بالله تعالى، وتصحيح المعتقد.

٤- تدبّر كتاب الله عز وجل.

٥- كن على ثقة من نفسك، وتغلَّب على الشعور بالنقص بالتركيز على النفس، ولا تنظر إلى من هو فوقك، بل انظر إلى من هو أدنى منك، فإنَّه أجدر أن لا تزدري نعمة الله.

٦- الحسد والحقد شكَّل ٧٢٪ من جرائم القتل في الثلاث سنوات الأخيرة في مصر،[٢] فعليك أن تجاهد نفسك ألاَّ تكون حسوداً، فإن الحسد عواقبه مخزية، فاعتبر واتعظ.

٧- حاول أن تفعل مثل من تحسده فإن لم تستطع فعاونه حتى يعالجك الله من داء الحسد.

٨- اعلم أن الحسد حرام وهو أول سنّة سنّها إبليس.

---

(١) سورة «البقرة».

(٢) دراسة اجتماعية نفسية أجريت مؤخراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ونقلتها صحيفة القدس عن دار الخليج تحت عنوان: «الحسد حقيقة أكَّدها القرآن».

٩- الحسد: إن كان فطرياً فجاهد نفسك للتخلص منه، وإن كان مكتسباً فلا تمارسه.

١٠- اعلم أن الحسد وباء وخيم في المجتمعات البعيدة عن شرع الله، ولا بدَّ من معالجته والتعاون على المعالجة لتخليص المجتمعات منه، ولا يكون إلاَّ بالتقرب إلى الله تعالى.

١١- الصبر.

١٢- تقوى الله.

١٣- التوكل على الله.

١٤- الإيمان بالقدر.

١٥- التوبة من الذنوب والندم.

١٦- الإقبال على الله وإخلاص الدعاء له ليشفيك من داء الحسد.

ثانياً: معالجات رد الحسد، وكيد الحاسد بما يلي:

١٧- تعلَّم كيف تتكيَّف مع الحسد، كما تعلَّمت كيف تعالجه، فإن ذلك يساعد على حياة أسهل.

١٨- الإحسان للحاسد.

١٩- قراءة المعوِّذات، والرقى الشرعية.

٢٠- المحافظة على الأذكار.

٢١- تعويذ الأولاد.

٢٢- اللجوء إلى الله تعالى وعدم استعمال تمائم الجاهليةِ، وتعليق الخرزة، والعين الزرقاء، وحدوة الفرس، والنعال، والكف.. الخ.

حجَّةٌ وفضيحةٌ في آخر الطريق إلى جهنَّمَ

كنت في الجزء الأول من كتابي «المنافقون، هم العدو فاحذرهم» ذكرت فضيحة للمنافق في أول وهلة – في الآخرة – بعد البعث وقلت في الصفحة (٢٦) منه: «**أراد المنافق في هذا اليوم العصيب أن يصنع الذي كان يصنعه في الدنيا، فلم يستطع، أراد أن يجرِّب تلك المسرحية التي كان يمثل بها أمام المسلمين المؤمنين لكنه لم ينجح، ظنَّ الخاسر أن سجوده في الدنيا وقد خلا من الإخلاص لله أن يعيده هنا في الآخرة، فإذا بظهره يعود طبقاً واحداً**».

إنَّ ظَهْرَ المنافق في الآخرة بعد البعث لم يطاوعه ليسمح له بالسجود، فضيحة لم تكتمل فيها فرحته وهو يتابع مسرحيته التي كان يلعب على خشبتها في الدنيا، فإذا به يفاجأ بفضيحة أخرى من العيار الثقيل في آخر مواطن الطريق إلى جهنم.

فخزيه في الموقف بقيام فقار ظهره في أول وهلة موحّداً لا يطاوعُه؛ يهون مقابل خزيه بقيام باقي أعضاء بدنه بالانقلاب عليه في آخر لحظة من لحظات وقوفه في الموقف قبل دخوله جهنم، لأنها كشفت كذِبَه وافتراءه، وسمع بأذنيه ورأى بأم عينيه حقيقته من حقيقته، فحين سأله الله عن دينه، هجمت أخلاقه الفاسدة على قلبه ووجهه ولسانه، وظنَّ بعبقريته الفاجرة الحمقاء أن يعيد في جوابه لله بناء المسرحية من جديد.

لم يستفد المنافق الدجّال من تجربته الفاشلة في الدنيا، والفاشلة في القبر، والفاشلة يوم كشف الله عن ساقه، بل استمر بنفاقه وعنجهيته، لكن هذه المرّة كانت الكذبات والمسرحيات في الموطن الأخير من الموقف لتقوده إلى جهنم من غير أن يناقش فيها أحداً!

لماذا؟ الجواب: إنه العقاب الذي بيَّنه الله تعالى في كتابه العزيز، وبيَّنه النبي ﷺ

في أحاديثه الصحيحة، قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)**﴾[١]

والختم: الوسم على الشيء بطابع ونحوه، مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء وطبعه فيه للاستيثاق، لكي لا يخرجَ منه ما هو بداخله، ولا يدخله ما هو خارج عنه.

ففي يوم القيامة يختم الله عز وجل على أفواه الكافرين والمنافقين فلا تنطق، أما قول الشيخ السعدي -رحمه الله-: «**بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلَّمون**». فإنه خلاف الدليل، ففي الآية «الختم»، وفي الحديث كما سيأتي معنا «الفدام» وكلاهما يمنعان الكلام، ولا يخرسان اللسان.

وإنما تتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبونه في الدنيا من النفاق والأقوال الباطلة، والأفعال القبيحة. والولاءات الفاسدة، قال ابن كثير -رحمه الله-: «**هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت**».

وقوله تعالى: ﴿**عَلَى أَفْوَاهِهِمْ**﴾ التفات إلى الغَيْبَة للإيذان بأنَّ ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم. وقد بيَّن النبي ﷺ ذلك بقوله: «**إِنَّكُمْ مَدْعُوُّونَ [يوم القيامة] مُفَدَّمَةً أَفْوَاهُكُمْ بِالْفِدَامِ**[٢]، **ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُبِينُ عَنْ أَحَدِكُمْ لَفَخِذُهُ وَكَفُّهُ**».[٣]

وتلك غاية الخزي؛ أن يقع تكذيبهم من جوارحهم، وقوله -عليه السلام-

---

(١) سورة "يس".

(٢) قال في "النهاية": الفدام: ما يُشَدّ على فَم الإبْرِيق والكُوز من خِرْقة لتَصْفِيَة الشَّراب الذي فيه: أي أنَّهم يُمْنَعون الكلامَ بأفواههم حتى تَتَكَلَّم جَوارِحُهم فشَبَّه ذلك بالفِدام.

(٣) أخرجه أحمد والسياق له، والحاكم وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وابن عبد البر في "الاستيعاب" وقال: "الحديث صحيح، والإسناد ثابت"، وغيرهم كما في "سلسلة الأحاديث الصحيحة" لشيخنا الألباني (٢٧١٣).

في الحديث: «يُبين»: أي: يوضح ويفصح. وجاء في رواية لأحمد: «يُترجم». وفي رواية: «يُعرب». وفي رواية: «يتكلم».

وقوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ قال صاحب «التفسير الكبير»: «**إنَّ الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه، وقال: ﴿نَخْتِمُ﴾، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل، لأنَّه لو قال تعالى: نختم على أفواههم وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أنَّ ذلك منهم كان جبراً وقهراً، والإقرار بالإجبار غير مقبول، قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ أي: باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم**».

أما لماذا جعل الله تعالى الكلام لليدِ والشهادةَ للرِجْلِ؟ فإنَّ الإجابة على هذا السؤال تعتبر منتهية مع ورود الدليل في قوله ﷺ في الحديث كما سيأتي: «**فيقال لأركانه: انطقي. قال: فتنطق بأعماله ثم يخلَّى بينه وبين الكلام**». أو في قوله: «**فَيُخْتَمُ على فيه، ويقال لفخذه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله**».

أو في الأثر الذي أخبر به أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه: «**فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى**».

ففي القرآن أنَّ الكلام للأيدي والشهادة للأرجل، لكن الأحاديث أفادت أنَّ أعضاء الكافر والمنافق كلها تتكلَّم بالشهادة ضدّه. ويمكن أن يقال: أنَّ إسناد الكلام لليد كونها مباشرة؛ فقول المباشر إقرار، وأنَّ إسناد الشهادة للرِجْلِ كونها حاضرة؛ وقول الحاضر شهادة. لكن لا يمنع على ضوء الأحاديث في بيانها لنطق الأعضاء أن يكون العضو الفاعل هو المتكلم، وبقية الأعضاء له شهود ويؤيده ما ورد في أثر أبي موسى: «**فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى**». فيكون تخصيص اليد بالكلام في الآية من باب كونها من الأعضاء المباشرة للفعل على الغالب، وبقية الأعضاء لها شهود ـ والله أعلم ـ.

وفي الحديث تهديد واضح للمنافقين الذين يمارسون تغطية كفرهم في الدنيا

بالنفاق، فقوله «إِنَّكُمْ مَدْعُوُّونَ» خطاب لكل من انتسب إلى أمة محمد، لكن ينجو منه في الآخرة المؤمنون الصادقون لأنَّهم يعترفون بذنوبهم ويفتضح به الكافرون والمنافقون، لأنَّهم لا يعترفون بل ينكرون ويكذّبون. فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: «**يُدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فَيَعْرِضُ عليه رَبُّه عملَه فيما بينه وبينه، فيعترف. فيقول: نعم أيْ رب، عملتُ عملتُ عملت. قال: فيغفر الله له ذنوبه، ويستره منها. قال: فما على الأرض خَليقة ترى من تلك الذنوب شيئًا وتبدو حسناته، فَوَدَّ أنَّ الناس كلهم يرونها. ويُدعى الكافر والمنافق للحساب، فَيَعرِضُ رَبُّه عليه عمله، فيجحد فيقول: أي رب، وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل. فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أيْ رب ما عملتُه. فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه. قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**»[1].

وسبب الختم على أفواههم، أنهم استعملوا في حياتهم الدنيا جوارحهم بالنفاق والباطل، فقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿. **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)**﴾

يبيِّن لك أن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه فيقال له – مثلاً –: لم سمعت ما لا يحل لك سماعه!؟ ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه!؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه!؟ قال الشنقيطي –رحمه الله–: «**أي: أن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه: عن سمعه، وبصره، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه**».

---

(١) أخرجه الطبري في "تفسيره"، وابن ابي حاتم في "تفسيره". وقال شيخنا الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة"(٤٨٢/١/٦): "سنده صحيح". واعلم أنَّ الحديث إن كان موقوفاً على أبي الحسن الأشعري إلاَّ أنَّ له حكم المرفوع لأنَّه لا يقال من باب الرأي.

وخطورة المسألة تتأكد لك في الشطر الأول من الآية: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ. (٣٦)﴾ قال قتادة: «(لَا تَقْفُ): **لا تقل: رأيتُ وأنتَ لم تر، ولا سمعتُ وأنت لم تسمع، ولا علمت وأنت لم تعلم**».

ففيها التحذير الشديد والنهي المحرَّم أن يقول الإنسان قولاً لا علم له به، أو أن يفعل فعلاً بدون تحقق، أو أن يحكم حكماً بلا بيِّنة أو دليل.

ويدخل في حكم الآية النهي عن التقليد الأعمى، لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، ويدخل في حكمها شهادة الزور.

والآية تنبيه مهمٌّ على استعمال هذه النعم في الحق، لا استعمالها في المعصية. قال الشيخ السعدي -رحمه الله-: «**فحقيق بالعبد الذي يعرف أنَّه مسئول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى**».

فالمؤمنون إذا سئلوا يوم القيامة عن استعمال حواسهم وأعضائهم في المخالفات أقرُّوا بذنبهم واعترفوا، كما جاء في أثر أبي موسى الأشعري: «**فيعترف. فيقول: نعم أيْ رب، عملتُ عملتُ عملت**». وكما جاء في حديث البطاقة الذي رواه عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «**إنَّ الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب! فيقول أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب! فيقول: بلى إنَّ لك عندنا حسنة فإنَّه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أنَّ لا إله إلا الله و أشهد أنَّ محمداً عبده و رسوله، فيقول: ها حضر وزنك، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فقال: إنَّك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات**

و ثقلت البطاقة، فلا يَثْقُلُ مع اسم الله شيء».[1]

على خلاف الكفّار والمنافقين فإنَّهم ينكرون ولا يعترفون. بل يتَّهمون الكتبة الشهود ويكذِّبونهم، لذا يختم الله على أفواههم؛ لتُسأل أفئدتهم عما افتكرت واعتقدت، والسمع والبصر عمّا رأى من ذلك وسمع، فسمعه وبصره وفؤاده ﴿**كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ أي: تشهد عليه، فإقرار الجوارح أبلغ من نطق اللسان، لا سيما وأنَّ الله تعالى قادر على إنطاق الأشياء نطقاً خارجاً عن المعتاد، وجاء في حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً وهو من أشراط الساعة: «**ويخبر فخذه بما يحدث أهله بعده**».[2]

قال القرطبي ـ رحمه الله: «**وفي هذا الحديث ما يرد على كفرة الأطباء والزنادقة الملحدين، وأنَّ الكلام ليس مرتبطاً بالهيبة والبله، وإنما الباري جلت قدرته يخلقه متى شاء في أي شيء شاء من جماد أو حيوان على ما قدره الخالق الرحمن، فقد كان الحجر والشجر يسلِّمان عليه ﷺ تسليم من نطق وتكلم، ثبت ذلك في غير ما حديث، وهو قول أهل أصول الدين في القديم والحديث.**

وثبت باتفاق حديث البقرة والذئب وأنَّهما تكلما على ما أخبر عنهما ﷺ في الصحيحين».[3]

مع علمنا وإيماننا أن البدن بعد البعث في النشأة التالية؛ هو البدن ذاته عند التخلق في النشأة الأولى، قال القرطبي –رحمه الله–: «**وهذا أبلغ في الحجَّة. فإنَّه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي**».

وفي سورة «الأنعام» بيَّن الله تعالى إنكار الكفّار والمنافقين لشركهم في الآخرة،

---

(١) أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وهو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد، والترمذي، وغيرهما، وهو في "صحيح الجامع" (٧٠٨٣).

(٣) "التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" (ص:٧٤٦).

فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾

وهذا الإنكار من المنافقين وسائر الكافرين حين رأوا - يوم القيامة - يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم، لا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره ولا يغفر الشرك، وهذا أشار إليه الإمام البيهقي -رحمه الله- وقال: «**قالوا: إنَّ ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، فتعالوا حتى نقول إنّا كنّا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله: أما إذا أنكرتم الشرك فاختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون**».[1]

وتبقى عادة الحَلْف الكاذب فيهم مستمرة، إنَّهم يحلفون ويفترون قائلين: ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ ينكرون ويجحدون كفرهم وتكذيبهم الرسول، ويدَّعون أنَّهم مع الحق وأهل الحق، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٨)**﴾[2]

وقوله تعالى: ﴿**انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**﴾ يبيِّن لك عظم الجرم الذي ارتكبوه في حقِّ أنفسهم، قال صاحب «الكشَّاف»: «**ليس العجب من حلفهم لكم في الدنيا بأنَّهم مسلمون؛ فإنَّكم بشر تخفى عليكم السرائر. ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة بأنَّهم كانوا مسلمين في الدنيا**».

لذا جاء في ختام الأثر ما يستحقونه: «**فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه**».

فالمنافقون أنكروا أنهم كانوا مشركين في الدنيا، وكانوا من الحماقة والافتراء الى حدِّ أنهم غفلوا عن أعضائهم التي كانت عوناً لهم على الشرك وسائر المعاصي أنها ستنقلب في الآخرة عليهم، وتصير إلى الشهادة ضدَّهم. فإذا عرفهم أهل الموقف وأنهم لا حجَّة لديهم فيما يزعمون صاروا إلى تمام خزيهم، وعن أبي

(١) "شعب الإيمان"(١/٤٢٦).
(٢) سورة "المجادلة".

هريرة قال: «قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «فهل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا: لا. قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ قالوا: لا. قال: «فو الذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما. قال: فيلقى العبد، فيقول: أي فل[1]: ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع[2]؟ فيقول: بلى، أي رب! قال: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا.

فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فذكر مثله، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: يا رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، - ويثني بخير ما استطاع -.

فيقول: ههنا إذا. ثم يقال: الآن نبعث شاهداً عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويُقال لفخذه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه». [3]

ففي الحديث ما يبيِّن لك أن المنافق لا مفرَّ له وقد أنكر وكذب، وأنه لمّا علم ببعث الشاهد، تفكّر من ذا الذي يشهد عليه؛ وقد نسي أو تناسى الله وهو يمارس نفاقه في الدنيا والآخرة، فيختم على فيه لأن لسانه لا يصلح للنطق بالشهادة، فهو دجّال كذاب مفتر، فتحلُّ أعضاؤه محل لسانه بالشهادة فينطقها الذي أنطق كل شيء، فيرى خزيه بأم عينيه، ويرى مراوغاته وقد فضحها الله بين يديه. وهذا هو تأويل قوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿. . وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾ فالكتم باعتبار شهادة أعضائهم عليهم. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ

(١) أي: (فُلْ) بضم الفاء وسكون اللام ومعناه يا فلان.
(٢) أي تأخذ المرباع وهو (ربع) الغنيمة كانت ملوك الجاهلية تأخذه.
(٣) رواه مسلم، وأبو داود، والبيهقي في "شعب الإيمان"، والبغوي في "تفسيره".

﴿وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣)﴾[1]

في الآيات تذكيرٌ لمن لا يزال مستمراً في عداوته لله، ومستمراً في عداوته لأهل الحق، ومستمراً في عداوته للدعوة السَّلَفية في القدس.

لما مات أهل النفاق والشرك وختم على أعمالهم بالشقاوة، وقفوا على النار في الموطن الأخير على الطريق إلى جهنم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يساقون ويدفعون إلى النار، ولا يزالون ينكرون شركهم فلم يقبل الواحد منهم شاهداً على نفسه إلاَّ منه، وكأنهم أحسنوا الظنَّ بأعضائهم التي عاونتهم في الشرك والمعصية في دنياهم؛ أن توافقهم وتعاونهم عند السؤال في الآخرة، وأن تنكر كما أنكروا، وأن تجحد كما جحدوا، وأن تشهد لهم على كذبهم وافتراءاتهم، كما جاء في حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – مرفوعاً: «**كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: هل تدرون ممَّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه. يقول: يا رب! ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول عز وجل: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز[2] على نفسي إلاَّ شاهداً مني.**

قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي. قال: فتنطق بأعماله ثم يخلَّى بينه وبين

(١) سورة "فصلت".

(٢) لا أجيز على نفسي: أي: لا أمضي ولا أقبل علي شاهداً.

الكلام. قال: فيقول: بعداً لكُنَّ وسحقاً، فعنكنَّ كنت أناضل».[1]، [2]

فحين تقرأ الحديث لك أن تتبع النبي ﷺ في ضحكه، اضحك من ذاك الدجّال المنافق وهو يمارس في الدنيا ألاعيبه على السذَّج من أمثاله، اضحك حين تراه يلعب على نفسه ويخادعها، فإذا صار إلى الموت فإنه كما قال تعالى في سورة «النحل»: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)**﴾

فانغماس المنافقين في نفاقهم لا يشعرهم بالممارسات الدنيئة التي يمارسونها في كل لحظاتهم، فمع معاينتهم الموت خضعوا وانقادوا واستسلموا ولسان حالهم يقول: ﴿**مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ**﴾! غريب، ما أشنع النفاق، وما أسوأ عقابه، نعوذ بالله منه.

فقوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قيل المراد بشهادة جلودهم: شهادة الفروج، والأرجح شهادة جلودهم ذاتها، في قول أكثر المفسرين، لأن الله تعالى قادر على إنطاق كل شيء، قال ابن كثير -رحمه الله-: «**لا يكتم منه حرف**».

فما كان منهم إلاَّ لوم أعضائهم في منظومة النفاق التي تعاونت معهم في السابق لخصام الله وأوليائه، فقالوا لهم: ﴿**لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا**﴾ شيء مضحك!، ومضحك غاية عندما تسمع أعضاء المنظمة المنافقة وهي ترد على بعضها قائلة: ﴿**أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾

ويكتمل المشهد المخزي للمنافقين وهم يصرخون في أعضائهم قائلين: «**بعداً لكُنَّ وسحقاً، فعنكنَّ كنت أناضل**».!!

---

(١) رواه مسلم، وأحمد، والنسائي، والبيهقي في "شعب الإيمان"، وأبو عوانة، وابن حبان، والحاكم، وأبو يعلى، وغيرهم.

(٢) المناضلة: المجادلة والمخاصمة.

ولكن يبقى هناك سؤال مهم وهو: هل اللسان الذي يستعمله الكافر والمنافق للكذب لا يشهد على كذب صاحبه في الآخرة؟ أليس هو عضواً من الأعضاء؟

وإذا قلنا بنطق الجوارح في الآخرة لتصير إلى الشهادة ضدَّ صاحبها الكافر أو المنافق، فإن المنافق - على سبيل المثال - كثيراً ما كان يستعمل لسانه بالكذب فهل ينقلب لسانه عليه - أيضاً - بحيث يصدق؛ فيعترف على شركه أو كفره أو نفاقه في اللحظة الأخيرة قبل دخوله نار جهنم؟

إن ما ورد فيما سبق يشعر القارىء أن المنافق وسائر الكفرة حين يفدَّمون على أفواههم فإن لسانهم باقٍ على الكذب، لذا فإن خزيهم لن يكون إلاَّ بعد أن تنطق جوارحهم بشركهم وكفرهم وضلالهم.

والحق أن ألسنتهم باعتبارها جارحة من الجوارح تعترف - أيضاً - وتشهد؛ فهي كسائر الجوارح خاضعة لقدرة الله تعالى على انطاقها، بحيث تصير إلى فضيحة صاحبها، فيعترف على نفسه بلسانه بأنه مشرك وكافر، وقد ارتكب من المعاصي كذا وكذا. وبالتالي فقوله تعالى: ﴿. . **وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً**﴾ على اعتبار شهادة أعضائهم وشهادة لسانهم أيضاً، وأنهم يستحقّون العذاب الأبدي في جهنم.

واعلم أن لسانهم الذي استعملوه بالكذب، ثم استعملوه في لوم جلودهم بقولهم: ﴿**لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا**﴾ قد سمعوا جوابه من جلودهم: ﴿**قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ فما عساهم قائلين للسانهم وقد انقلب عليهم وانخرط مع جميع الأعضاء في الشهادة والاعتراف؟

وتقدَّم معنا أن لسانهم الذي تحرك قائلاً: «**بعداً لكُنَّ وسحقاً، فعنكنَّ كنت أناضل**»!! ها هو يشهد حين طلبه الله تعالى للشهادة!! كما قال: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ**

الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾.[١] قال الشيخ المعلَّمي اليماني -رحمه الله-: «**والمقصود من استشهاد الأعضاء إبلاغ الغاية القصوى في إظهار العدل**».[٢]

ومن الاعترافات التي يأتي بها الكافر والمنافق بلسانه يوم القيامة وقد ذكرها الله تعالى في القرآن:

*- **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾**[٣]

*- **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)﴾**[٤]

*- **﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾**[٥]

وقال الشيخ العلاَّمة المعلمي اليماني -رحمه الله-: «**فالإنسان إذا رأى يوم القيامة إن الله عز وجل يقرره بعمله ولا يؤخذ بمجرد علمه تعالى، يتوهم أن الإنكار ينفعه، ثم لا يرضى بشهادة الملائكة ولا الرسل، فتشهد عليه أعضاؤه. حينئذ يظهر**

---

(١) سورة «النور».
(٢) "القائد إلى العقائد"(ص:١٨٤).
(٣) سورة "الأنعام".
(٤) سورة "الزمر".
(٥) سورة "الملك".

له و لغيره عين اليقين الغاية القصوى في عدل الله تبارك تعالى، ومع ذلك يعترف بلسانه صريحاً عند دخوله النار».

وقال الشيخ العلاَّمة السعدي -رحمه الله-: «**فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم**».

فلن يستطيع الكافر أو المنافق الهرب من نتائج عمله مهما حاول، لأن جوارحه شاهدة عليه، ولأن أعذاره لن تكون مقبولة، لأنها جاءت في غير وقتها، يعني في غير الفرصة التي أتيحت له في دنياه. نقل ابن كثير في «تفسيره» عن قتادة قوله: «**ابن آدم، والله إن عليك لَشُهودًا غيرَ متهمة من بدنك، فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، والظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن، فليفعل ولا قوة إلا بالله**».

إن من تمام العدل أن يخلقك الله مكلَّفاً ثم يهبك آلات التكليف لتستعملها في طاعته وعبادته، فعليك تسخيرها في اتباع أوامره واجتناب نواهيه، أما أن تستعمل سلطانك عليها وأنت في دار التكليف بحيث تسخرها للشرك بالله تعالى، أو في الضلال والمعصية، فعليك إذاً أن تتحمل وزر تبعات أعمالك، والله تعالى القائل في كتابه العزيز في سورة "الشمس": ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)**﴾.[1]

والقائل: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)**﴾.[2]

فأنت في الدنيا، في دار التكليف والابتلاء، مسؤول عن اختياراتك، من خلال آلاتك: سمعك وبصرك، وفؤادك، وجلدك الذي يحيط بك وبحواسك

(١) سورة «الشمس».
(٢) سورة «البلد».

كلها، ولحمك وعظمك، فإنها تتبعك في اختياراتك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. لأن لك سلطاناً عليها منحته لتقوم بالتكليف على أتم وجه.

لكنك في اختياراتك المخالفة لشرع الله تعالى تدفع بجوارحك وتضطرها إلى أن تعاونك في الشرك والنفاق والمعصية، وقد أسقط من حساباتك قدرة الله عليك، فإن الله تعالى من تمام عدله أنه مكَّنك في الدنيا من جوارحك وحواسك وجلدك لاستعمالها في مرضاته، فلا تلومها في الآخرة إن هي اعترفت وشهدت على شركك وضلالك ونفاقك وقد سُلبت منك إرادة الاختيار التي منحتها في الدنيا.

فلا تظن أن سلطانك على آلاتك - التي أنعم الله بها عليك في الدنيا - أنه سيبقى لك في الآخرة، فإنك عند الحساب تحرم منه لتنطلق جوارحك بالاعتراف والشهادة عليك. ثم كما قال الله تعالى: ﴿. . . **وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾.[1]

ومعنى ذلك أنه لا اختيار لك للفرار من نار جهنم، فكما أنت دفعت بآلاتك وقد أنعم الله عليك بها واضطررتها للتعاون معك في الباطل على الشرك والكفر والضلال والمعصية، فها أنت تعامل معاملة المثل بها. فهي - كما ترى - أكثر من جاء بالشهادة ضدَّك لأنها من ذاتك وحسب طلبك.

وها هي إرادة الله فيك، وها هو عدل الله فيك، فإن الله يمنح العبد في الدنيا إرادة يختار فيها وقد ميَّز الحق من الباطل، فإذا به يستعملها ضدَّ الله عز وجل، وقد نسي أن الله يبعثه ويحاسبه، فإذا وقف بين يدي الله ظنَّ المعتوه الخاسر أن له إرادة في الآخرة يستمر بها في اللعب على الله، فإذا بإرادته مسلوبة، وقد منحت لجوارحه وحواسه بعيداً عن سلطانه، فهل يستطيع الفرار من واقعه المخزي وإرادة

(١) سورة «البقرة» الآية: (١٢٦).

الله قائمة يفعل ما يريد سبحانه؟ فقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمْ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ «في هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم كاملاً على أعمالهم بالعدل، ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق المبين الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، وكل شيء منه حق، الذي لا يظلم أحدًا مثقال ذرة.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعده ووعيده، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا ثَمَّ حقٌ، إلاَّ في الله وما من الله». [1]

(١) قاله الشيخ السعدي -رحمه الله-.

صدر للمؤلف

١ . ابتلاء الناس بالدين في ضوء قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾.

٢ . اقرأ ثم اكتب وصيّتك.

٣ . التفسير السلفي للقرآن الكريم «تفسير سور القرآن: الضحى، والشرح، والعصر».

٤ . التفسير السلفي للقرآن الكريم «تفسير عشر سور من القرآن حسب النزول».

٥ . الجزء الأول من كتاب: «المنافقون، هم العدوُّ فاحذرهم».

٦ . الجزء الأول من كتاب: «فتنة الربيع العربي؛ الأسباب والنتائج».

٧ . الجزء الأول من كتاب: «الحجاج بمقالات على المنهاج».

٨ . الجزء الأول والثاني من كتاب: القرآن في منهاج الطائفة المنصورة.

٩ . الجزء الأول والثاني من كتاب: «نور على الدرب (كلمات في الدعوة والمنهاج)».

١٠ . السلفيون في القدس ـ اليوم ـ هم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية. الطبعة الثانية.

١١ . العدل والإنصاف من خصائص أهل السُّنّة والجماعة.

١٢ . الفائز في تلخيص أحكام الجنائز، وبذيله اقرأ ثم اكتب وصيّتك.

١٣ . النقد والإحصا للأحاديث الضعيفة والموضوعة في فضل القدس والمسجد الأقصى.

١٤ . النور المبين في الخبر الأمين تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

١٥ . إتحاف الأنام في فضائل المسجد الأقصى والشام.

١٦ . إعلام الفهّامة بأن أعظم كرامة لزوم الاستقامة . الطبعة الثانية .
١٧ . إنارة سبل الأنام بإفشاء السلام .
١٨ . تبصير المسلمين إلى الصراط المستقيم .
١٩ . دروس تبسيط العقيدة الإسلامية .
٢٠ . دعوتنا سلفيّة لا وهّابيّة .
٢١ . زمن الهرج باختصار : القاتل والمقتول في النار .
٢٢ . سيرة إبراهيم الخليل في القرآن المجيد والأحاديث الصحيحة .
٢٣ . كيف نفهم وحدة الصف من سورة «الصف» .
٢٤ . من سير الصالحين : قصة أبي القرن .
٢٥ . وحدة الصف من تسوية الصف .
٢٦ . ومقالات أخرى .